

رِئَاس

أَمِيرِ الْحَبَشَةِ

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

صموئيل جونسون

ترجمة

محمدي وهيبه كميل المهندي

تصوير

سير ديامانتيس

١٩٥٩

# رأس أمير الحبشة

بقلم

استدراك

وقع بخطأ في صفحة ١٧ سطر ١٤ ، ١٥ وصحته :  
حيث لفت نظر أساتذته بإجابته على سؤالهم باللاتينية  
مقتبساً إياها من فيلسوف روماني ...

تصوير

سير وديمانتيس

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية



الفصل	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول : وصف قصر في واد	٣٦
الفصل الثاني : راسلاس غير قانع بالوادي السعيد	٤١
الفصل الثالث : حاجات من لا يحتاج شيئاً	٤٦
الفصل الرابع : الأمير يستمر في حزنه وتأمله	٤٩
الفصل الخامس : الأمير يفكر في هربه	٥٥
الفصل السادس : بحث في فن الطيران	٥٨
الفصل السابع : الأمير يجد عالماً من العلماء	٦٤
الفصل الثامن : حياة إملاك	٦٧
الفصل التاسع : حياة إملاك أيضاً	٧٣
الفصل العاشر : حياة إملاك أيضاً - بحث في الشعر	٧٨
الفصل الحادي عشر : قصة إملاك تستمر - لحظة في الحج	٨٣
الفصل الثاني عشر : قصة إملاك تستمر	٨٩
الفصل الثالث عشر : راسلاس يكشف وسيلة الحرب	٩٦
الفصل الرابع عشر : راسلاس وإملاك يستقبلان زائراً غير منتظر	١٠٠
الفصل الخامس عشر : الأمير والأميرة يتركان الوادي	١٠٣
الفصل السادس عشر : يدخلون القاهرة ويجدون كل إنسان سعيداً	١٠٧
الفصل السابع عشر : الأمير يختلط بالشباب الممتلئ حيوية ومرحاً	١١٢
الفصل الثامن عشر : الأمير يجد رجلاً عاقلاً وسعيداً	١١٥
الفصل التاسع عشر : لحظة في حياة الرعاة	١١٩
الفصل العشرون : مساوئ الرخاء والتوفيق	١٢٢
الفصل الواحد والعشرون : سعادة العزلة - حياة الزاهد	١٢٥
الفصل الثاني والعشرون : سعادة حياة وجهت حسب الطبيعة	١٢٩
الفصل الثالث والعشرون : الأمير وأخته يقتسمان القيام بالملاحظة	١٣٣
الفصل الرابع والعشرون : الأمير يلتبس السعادة في الطبقات العليا	١٣٥

الصفحة

الفصل

١٣٨	الفصل الخامس والعشرون : الأميرة تتابع بحثها مجتهدة أكثر منها ناجحة
١٤٢	الفصل السادس والعشرون : الأميرة تمضى في ملاحظاتها على الحياة الخاصة
١٤٧	الفصل السابع والعشرون : بحث في العظمة ... ..
١٥١	الفصل الثامن والعشرون : راسلاس ونكايه يواصلان حديثهما ... ..
١٥٦	الفصل التاسع والعشرون : مناظرة الزواج تستمر ... ..
١٦٢	الفصل الثلاثون : إملاك يدخل ويغير الحديث ... ..
١٦٧	الفصل الواحد والثلاثون : يزورون الأهرام ... ..
١٧١	الفصل الثاني والثلاثون : يدخلون الهرم ... ..
١٧٤	الفصل الثالث والثلاثون : الأميرة يصادفها سوء حظ ... ..
١٧٦	الفصل الرابع والثلاثون : يعودون إلى القاهرة من غير بكواه ... ..
٢٨١	الفصل الخامس والثلاثون : الأميرة يضمنها فقدتها لبكواه ... ..
١٨٦	الفصل السادس والثلاثون : لا تزال بكواه في الذاكرة . سين الحداد ... ..
١٨٨	الفصل السابع والثلاثون : الأميرة تسمع أخباراً عن بكواه ... ..
١٩١	الفصل الثامن والثلاثون : مغامرات السيدة بكواه ... ..
١٩٧	الفصل التاسع والثلاثون : بقية مغامرات بكواه ... ..
٢٠٥	الفصل الأربعون : حياة عالم من العلماء ... ..
٢٠٩	الفصل الواحد والأربعون : الفلكي يكتشف سبب قلقه ... ..
٢١١	الفصل الثاني والأربعون : رأى الفلكي يوضح ويررر ... ..
٢١٤	الفصل الثالث والأربعون : الفلكي يترك لإملاك توجيهاته ... ..
٢١٧	الفصل الرابع والأربعون : السيطرة الخطرة للخيال ... ..
٢٢١	الفصل الخامس والأربعون : حديث مع شيخ هرم ... ..
٢٢٦	الفصل السادس والأربعون : الأميرة وبكواه تزوران الفلكي ... ..
٢٣٤	الفصل السابع والأربعون : الأمير يدخل ويقدم موضوعاً جديداً ... ..
٢٤٠	الفصل الثامن والأربعون : إملاك يتحدث عن طبيعة الروح ... ..
٢٤٦	الفصل التاسع والأربعون : خاتمة من غير خاتمة ... ..

# مقدمة

إن حياة جونسون استغرقت أغلب القرن الثامن عشر، فقد ولد عام ١٧٠٩ ومات عام ١٧٨٤. وإذا نظرنا إلى منزلته السامية في الأدب والفكر استطعنا أن نعهده هو وانتاجه رمزاً وخلاصة للتيارات الفكرية والأدبية في إنجلترا في ذلك القرن. وأول ما يلفت النظر في إنتاجه الفكري والأدبي أنه برهان ساطع على بطلان الفكرة التي كانت سائدة وقتئذ، وهي أن ذوق العصر وأخلاقه تتراوح بين الرقة المتكلفة والمنطق الذي لا يقبل الجدل، وهذا ما سنتبينه بوضوح حينما نستعرض حياة جونسون.

وقبل أن نستعرض حياته يجدر بنا أن نلمح للمامة بحياة إنجلترا السياسية، والاجتماعية والفكرية في ذلك الوقت. لقد كانت بداية القرن الثامن عشر نقطة تحول في حياة إنجلترا السياسية، ففي سنة ١٧٠٤ هزمت الجيوش الانجليزية بقيادة دوق مورلبرا (Marlborough) جيوش لويس الرابع عشر أقوى مستبد في أوروبا في معركة بلنهام (Blenheim). ولعل سر هذا الانتصار يرجع

إلى أن انجلترا قد خلفت وراءها قرنين من الحروب الأهلية والمنازعات الدينية في سبيل توحيد كلمتها تحت لواء حكم مركزي محوره أسرة مالكة محايدة وبرلمان يسن القوانين ويتكون من حزبين يتداولان الحكم بينهما . غير أن المراقبين الأوروبيين ظنوا حينئذ أن هذه الوحدة وتلك القوة التي نجمت عنها لم تكن إلا نتيجة للنظم الديمقراطية البرلمانية التي يشعر كل فرد في ظلها بما له من حقوق وما عليه من واجبات . ومما يؤيد ذلك ما قاله فولتير في إحدى رسائله عن الانجليز : « إن الأمة الانجليزية هي الأمة الوحيدة التي استطاعت أن تنظم سلطة ملوكها أثناء مقاومتهم لها ، حيث كان الأشراف عظماء من غير غطرسة وبدون أتباع ، وحيث اشترك الناس في الحكم من غير فوضى . وفي انجلترا اعتاد الشعب على التفكير ، والأدب مراعى فيها أكثر منه في فرنسا . وهذه الميزة نتيجة حتمية لنظام الحكم الانجليزي » . ومن العجيب — بالرغم من أن الحروب كانت مستمرة في أوروبا وخاصة بين فرنسا وانجلترا معظم هذا القرن — أن رأى فولتير هذا كان يردده جمهرة المثقفين بالقارة الأوروبية ممن عاشوا في ظل الحكم المطلق ، فأصبحت انجلترا في أعينهم نموذجاً للتفكير السليم في مجتمع قوى حر .

ومع أن هذا الرأي لا يخلو من المغالاة وحتى من البطلان فإنه بالموازنة بين نظم الحكم والعدالة الاجتماعية في القارة الأوروبية نجد أن إنجلترا كانت أقل أمم أوروبا استبداداً وكتباً للحريات . ومما زاد في قوة إنجلترا وسموها في نظر المثقفين الأوروبيين أن الحياة الاجتماعية في إنجلترا لم تكن — كما كانت في أغلب البلاد الأوروبية — مقصورة على المدن بل كانت تعم المدن والأرياف ، فقد كان الأشراف يقضون أكثر وقتهم في ممتلكاتهم بالريف مندجين في الشعب بعيدين عن بلاط الملوك والمؤامرات التي كانت تحاك فيه طمعاً في حظوة لدى الملك وقد كان في معظم القارة الأوروبية المصدر الوحيد للسلطات . وكانت نتيجة هذا في إنجلترا نوعاً من التضامن القومي بين الطبقات حماها مما وقعت فيه فرنسا مثلاً من التوترات الداخلية السياسية والاجتماعية التي أدت في النهاية إلى ثورة سنة ١٧٨٩ . فضلاً عن أن جمهرة الشعب الإنجليزي كانت تتخذ الريف وطناً لها . ومع مشقة العمل في الريف وزهادة أجوره كان العيش مكفولاً فيه لقرب الفلاحين من مصدر الإنتاج . ولا ينبغي أن نغفل الحقيقة الآتية وهي أن الحياة في الريف كانت تستند إلى أساس أعدل مما كانت عليه الحال في المدينة ، فقد كانت الكنيسة القروية



مركزاً اجتماعياً للقرية ، وكانت تجبي ضرائب زهيدة من سكانها جميعاً بلا تفریق بين الطبقات ، وتفتح بما يجبي مدارس للتعليم الأولى وملاجئ للأيتام والعجزة ، فكانت القرية مجتمعاً قائماً بذاته يشعر كل فرد فيها بمسئولية اجتماعية مطلقة . بيد أن الحال تختلف تمام الاختلاف عندما نتجه إلى المدينة ، إذ كان الأصل في تكوين المدن خلق أسواق لمنتجات الريف أو تجميع العمال والتجار حول صناعات معينة ، فلم يكن أغلب سكانها على هذا أصيلين في سكانها ، كما أنه لم تكن لهم تقاليد اجتماعية واحدة . وعلى الجملة كان سكانها عبارة عن جماعة لا يربط بين أفرادها سوى رابطة الصناعة أو التجارة .

وأما لندن العاصمة فقد كانت في القرن الثامن عشر تمر بمرحلة توسع سريع إذ كان عدد سكانها في سنة ١٧٠٠ نصف مليون ، وفي سنة ١٧٥٠ بلغوا ثلاثة أرباع المليون ، وفي نهاية القرن قاربوا المليون . وتبعاً لكثافة السكان ترامت أطراف المدينة، فبعد أن كانت مجرد ثغر تجارى ، رغم أنها عاصمة ، بدأت تتوغل داخل الريف فاندججت القرى المحيطة بها ضمن مساحتها ، كما شرع الأشراف وكبار التجار يشيدون فيها قصوراً بالأموال التي حصلوا عليها نتيجة للثراء الذي أصابوه من الانتصارات العسكرية في القارة الأوروبية والتوفيق

الذى حالقهم فى استعمار أمريكا والهند . فأصبح فى لندن منطقة سكنية ممتازة تقع فى غربها ، أما المدينة القديمة فظلت فى مكانها بالشرق . وأما لندن التى وصفها الرحالون الأوروبيون فى القرن الثامن عشر فكانت تمتاز بفارق عظيم بين شرقها وغربها ، ففى غربها الطرق المرصوفة والأطورة والمجارى الخفية فى باطن الأرض والإضاءة والسكون والأمن ، أما فى شرقها فقد كانت الطرق موحلة وغير مرصوفة كما كانت مجاريها على سطح الأرض يقذف إليها بفضلات الطعام وغيره من النوافذ وقد تصيب المارة أثناء سيرهم فى الطريق . وكان القصابون يذبحون الماشية فى الطريق العام ويرمون أمعاءها فيه تتنازعها كلاب الحى . وكان الفقراء فى هذا الجزء من لندن فى حالة يرثى لها يلتمسون السلوى والدفع فى شراب « الجن » ، وكان قد أدخل إلى إنجلترا من هولاندا فى مستهل القرن الثامن عشر ، وكانت خمرًا قوية رخيصة حلت محل « البيرة » الضعيفة الأثر التى كان لابد أن يتناول منها الفرد كمية كبيرة ليصل إلى درجة النشوة والابتهاج . وكان شرب « الجن » مأساة عامة بين سكان شرق لندن رجالا ونساء وأطفالا ، إذ كانوا يفضلونه على طعامهم ، فأصيب آلاف مؤلفة من جراء ذلك بالنسل والجنون ، وأصبحوا يهيمنون على وجوههم جزءاً من الأقدار التى تغص بها الطرقات . وحتى بعد أن سن البرلمان تشريعاً يحد من بيع الخمر فى سنة ١٧٥١ لم

يقض على هذا الإدمان الشنيع الذى كان من نتيجته ازدياد عدد الجرائم والمجرمين . وكانت العقوبات التى تلحق المجرمين من نوع عتيق ، فقد كانت العقوبة على سرقة حمل أو بعض من الخضر الشنق علناً على تل « تيرن » (Tyburn) ، كما كان المدين يعتبر ضحية لدائنه الذى يستطيع أن يقذف به فى غياهب السجن مدى الحياة ما دام المدين عاجزاً عن سداد دينه . وكان الجمهور يخشى باستمرار أحد اثنين ، قطاع الطرق الذين يسلبون المارة ويجبون الضرائب من المتاجر من غير خشية ولا رقيب ، وعصابات الحكومة التى كانت تنقض على أقوياء الشباب لينتظموا فى سلك الجيش أو البحرية . وكانت التسلية الوحيدة لفقراء لندن النظر إلى حالات الشنق لصغار المجرمين وكبارهم على تل « تيرن » ، واتخذت هذه المناظر موضوعاً للشعر والزجل والمرددات الشعبية . وأما الطبقة المتوسطة فكانت تسليتها أكثر تمديناً وإن كانت باهظة الثمن نسبياً ، فقد كانوا يجتمعون فى حديقتي « فوكسهول » (Vauxhall) و « رانلا » (Ranelagh) الشبهتين بمدن الملاهى فى القرن العشرين . ولم يكن دخول هاتين الحديقتين بالجبان ، لهذا كان وسطها أرقى من المجتمعات الأخرى ، ومع ذلك كثيراً ما كان قطاع الطرق يترددون عليهما طمعاً فى سلب المترىضين ما معهم من مال وحلى . وبالإضافة إلى ذلك كانت الطبقة

الوسطى تتخذ من المقاهى مجتمعاً لها ، وكانت قد أدخلت إلى لندن فى منتصف القرن السابع عشر ، وزاد عددها حتى بلغ فى منتصف القرن الثامن عشر خمسمائة مقهى ، وكانت فوق وظيفتها هذه مجتمعاً تجارياً هاماً ، واختص كل مقهى بمجتمع تجارى أو صناعى معين . وأما المسرح فقد قصر — بمقتضى قانون صدر سنة ١٧٣٧ — على دارين فقط ، غير أن شدة الإقبال عليه أدت إلى التحايل لبناء ستة مسارح أخرى على حدود لندن القانونية . وأما الطبقة الخاصة من الوجهاء والمفكرين فقد كانت تتردد على « صالونات » يشرف عليها بعض السيدات الموهوبات أمثال مسز « منتاجيو » (Montagu) ، ومسز « فرى » (Vesey) . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الكتاب والأشرف أنفسهم كانوا يترددون على نفس هذه الصالونات ، وكان فى هذا عون كبير للكتابات ، وذلك لأنهم كانوا فى أمس حاجة إلى مساعدة الأشرف فى القيام بنفقات نشر كتبهم ، إذ أن نظام النشر لم يظهر إلا بعد منتصف القرن الثامن عشر . كذلك كان الأشرف يجدون فى صحبة الكتاب حديثاً طليئاً ووسيلة للإشادة بذكورهم عن طريق المدح المباشر تارة وإهداء كتبهم إليهم تارة أخرى ، وبهذا يشعرون برضى وقناعة لأنهم أصبحوا رعاة الثقافة وحماة الأدب . غير أنه بظهور الدكتور جونسون على مسرح الأدب انتهى العهد الذى كان فيه

الأدب يحتاج إلى من يشجعه ويحميه ، فقد جاهد بكل ما يملك من قوة بيان وهجاء لاذع أن يقوض هذا الوضع وأن ينزع للأديب مركزاً اقتصادياً مستقلاً .

وإذا انتقلنا إلى الحياة الفكرية رأينا أن أهم عامل كان يسيطر عليها في القرن السابع عشر هو العامل الدينى . وقد أفضى إلى منازعات حادة وخلافات عنيفة لم يسلم منها أى نوع من أنواع الأدب ، غير أن الاستقرار النسبى الذى ساد القرن الثامن عشر قد جلب معه محاولات شتى لإيجاد نظرية دينية مقبولة من جميع المفكرين أساسها الاعتقاد السائد وقتئذ بأن جميع العقول البشرية متساوية فى قوة الإدراك ، وأن هذه العقول ليست سوى انعكاس للعقل الإلهى ، وأن الدين يجب أن يكون له أساس من المنطق والعقل حتى يقبله جميع الناس . وهذا الاتجاه ( وهو يشبه إلى حد كبير آراء المعتزلة فى الإسلام : وقد بدأ أمرهم بتلمس أسباب معقولة لتأييد الأدلة الشرعية النطقية ، ثم غالوا فى آرائهم حتى جعلوا النقل خاضعاً للعقل ) ، نتج عنه مئات من الكتب والمواظع موضوعها تفسير ما فى الكون تفسيراً معقولاً ، وتبرير خلق هذه الكائنات تبريراً يقبله المنطق والعقل . وأساس هذه العقيدة عقيدة أخرى هى أن الإنسان محور الخلق وأن الغاية من خلق ما فى الكون جميعه أن يكون مسرحاً لحياة

الإنسان ، فهو أحب المخلوقات إلى الله ، وكل ما يحدث في الكون يعلمه الله أزلا ، ولا بد أن ينتهى بما فيه خير الإنسان . ولو لم يدركه . فقلت بذلك أهمية بحث ما وراء الطبيعة ، واتسع المجال أمام علم التماس سبب معقول للتصرفات الإلهية نحو الإنسان (Theodicy) وعلم الأخلاق البشرية ، وشعر الفلاسفة وعلماء الكلام بأن الوقت قد حان لإيجاد دين يقبله كل الناس في جميع العصور ، وهذا الدين في نظرهم هو المسيحية المعقولة لا المسيحية المتشائمة المبنية على افتراض النقص الإنسانى والخطيئة المتأصلة في البشر . فعم الروح الفكرية تفاؤل شامل وأدى ذلك إلى جميع النظريات الفلسفية التى أساسها الاعتقاد بأن الإنسان خير بالفطرة ، وأن ما اكتسبه من شرور ليس سوى نتيجة للبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها . وجان جاك روسو الذى تنسب إليه هذه النظرية لم يكن سوى مرآة انعكست فيها الاتجاهات التى كانت تسود أوروبا في القرن الثامن عشر . وإذا اتجهنا نحو إنجلترا بصفة خاصة وجدنا أن هذا الجو الفكرى تمتد جذوره إلى شبه الثورة الفلسفية التى قام بها « جون لوك » (John Locke) (١٦٣٢ - ١٧٠٤) في أشهر مؤلفاته الفلسفية « رسالة في الإدراك الإنسانى » (١٦٩٠) . وأهم المبادئ الجديدة التى وضعها جون لوك يتخلص فيما يأتى :

أولاً — أنه لا جدوى من الجدل في الفلسفة قبل الاصطلاح على التعريفات ، فالدقة في التفكير تنتهى في رأيه إلى مشكلة لغوية .

ثانياً — أن العقل البشرى يبدأ صفحة بيضاء لا نقش فيها ولا أفكار وأن الصور الذهنية تحتله شيئاً فشيئاً عن طريق الحواس . وليس غريباً أن يتطور هذا المبدأ إلى مبدأ التفاؤل الذى ساد في القرن الثامن عشر القائل بأن الإنسان ليس شريعراً يفطرته .

ثالثاً — أن الخير والشر ليسا سوى مبدئين متعلقين بالسرور والألم . وهذا المبدأ يفترض الاعتقاد في خلق منسجم ترتبط فيه عناصره بعضها ببعض . وبذلك يكون لوك قد ربط فلسفة الأخلاق بنظرية تقعية أساس الخير فيها سرور المرء بفعله وأساس الشر ألمه لارتكابه . وأما الشرور التى لا يد للإنسان فيها أمثال الزلازل والأعاصير فمع أنه يألم لها قد تفضى إلى منفعة للصالح العام الذى يجهله الإنسان حال وقوعها . ومن هذا المبدأ استمد آدم سميث نظريته الاقتصادية القائلة بترك التجارة حرة حتى تستطيع بحكم ميل الإنسان للخير وابتعاده عن الشر أن تنظم نفسها بنفسها ، كما تأثر بهذا المبدأ الفيلسوف الألماني لايبنتس (Leibniz) الذى تعتبر فلسفته نموذجاً للتفكير في القرن الثامن عشر ،

وأساسها الاعتقاد في انسجام وضعه الخالق في الأزل ، وعلى كل إنسان أن يكشف لنفسه المبادئ التي بنى عليها هذا الانسجام ، فإذا سار بمقتضاها سعد وسعد الخالق وعم الخير . وقد شرح نظريته هذه في كتابه بالفرنسية Théodicée (علم التماس سبب معقول لتبرير التصرفات الإلهية نحو الإنسان) الذي ظهر في سنة ١٧١٠ . وعلى الجملة يعتبر لوك مؤسساً للتقليد الفلسفي الانجليزي الذي قاده باركلي (Berkeley) وهيوم (Hume) في القرن الثامن عشر وحتى بنتم (Bentham) في مستهل القرن التاسع عشر . واشتهرت في هذا العهد مناظرتان الأولى خاصة بالبحث عن الخير هل يوجد في الإنسان البدائي أو المتحضر؟ والثانية أدبية بحتة وتتعلق بالمفاضلة بين الأدب القديم والأدب الحديث ، وهل من الأفضل أن نتقيد بمناحي الأدب القديم (أدب الإغريق والرومان) أو أن نبكر أدباً مستقلاً قائماً على أسس جديدة؟ وانقسم المفكرون والكتاب تبعاً لذلك معسكرين .

أما من يرون من أصحاب المناظرة الأولى أن الإنسان خير بفطرته — ويوجبون لهذا أن يعود إلى حياة الفطرة الأولى — فهم سفسطائيين في مناظرتهم أكثر منهم منطقيين لأن الإنسان لا يستطيع بحال أن يعود إلى الحياة البدائية بعد



أن قطع أشواطاً بعيدة في المدنية والحضارة ، غير أن اتجاههم هذا كان رد فعل لفرط إمعانهم في الحياة الحضرية . على أن رأيهم هذا لا يتلاءم مع المسيحية الرسمية المبنية على أن الإنسان مذنب بفطرته ولا دخل للتربية والبيئة في ذلك . وترتبط نظرية البدائين هذه بالنظرية المتقدمة القائلة بأن العقل البشرى عبارة عن مصباح يضئ للإنسان حقيقة العالم المنسجم الذي يعيش فيه ويؤهله للسير على مقتضاه فيرتقى دائماً من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى . والعودة إلى حياة الفطرة الأولى - في نظر البدائين - هي وسيلة هذا الارتقاء .

وأما عن المفاضلة بين الأدب القديم والأدب الحديث فإنها مناظرة بدأت بفرنسا وإنجلترا في أواخر القرن السابع عشر وامتدت في القرن الثامن عشر حتى الثورة الفرنسية وظهور المدرسة الرومانتيكية الانجليزية في أواخر هذا القرن . وهذه المفاضلة أدت إلى ظهور النقد الأدبي بمعناه الحديث [ أسسه دريدن (Dryden) بالنسبة لإنجلترا في أواخر القرن السابع عشر ] غير أن المفاضلين بين الأدبين كانوا متأثرين في جدهم بأساليب الأدب القديم إلى حد كبير والتمشي مع أصوله . ولم تكن المدرسة الرومانتيكية الانجليزية إلا توفيقاً بين آراء المحدثين وآراء البدائين لأن هذه المدرسة توجب أن يعبر الإنسان عما يجول بخاطره بغض النظر عن

القواعد والقوانين التى سنّها القدامى ، وبوصفه شخصية مستقلة لا تخضع لمجتمع منظم وإن كان متحضراً . كانت هذه هى الحياة فى القرن الثامن عشر الذى عاش فيه مؤلفنا ، فلنعرض الآن لتاريخ حياته .

ولد صمويل جونسون فى مدينة « ليتشفيلد » (Lichfield) بمقاطعة « وستشر » (Worcestershire) عام ١٧٠٩ وكان أبوه وراقاً فى تلك المدينة فألف الكتب منذ حداثة . وقد أصيب وهو فى سن الثالثة بالجدرى فضعف بصره وحمله أبواه إلى لندن ليمس الملكة جسمه بيدها فيشفى مما يعانيه على ما جرت به العادة والاعتقاد فى ذلك الوقت ، غير أنه ظل — رغم ذلك — مشوه الحلقة يأتى بحركات عصبية مع ضعف بصره طوال حياته . ودرس جونسون فى مدرسة ليتشفيلد ثم التحق بكلية « ممبروك » (Pembroke) بجامعة أكسفورد حيث لفت نظر أساتذته بإجابته على سؤالهم باليونانية مقتبساً إياها من فيلسوف يونانى اسمه مقروبىوس (Macrobius) . ولم يستمر فى هذه الكلية سوى أربعة عشر شهراً بين سنتى ١٧٢٨ و ١٧٢٩ وذلك لضيق الحياة الاقتصادية أمام والده ، فعاد جونسون إلى ليتشفيلد لمساعد أباه فى متجره ، ومات أبوه سنة ١٧٣١ تاركاً أسرته فى حال بائسة من الضيق والفقر . فعمل جونسون مدرساً مساعداً فى مدرسة « ماركت بوزورث » .

(Market Bosworth) وهى مدينة صغيرة كانت سوقاً للتجارة بالقرب من برمنجهام ، وكان من وقت لآخر يحرر مقالات قصيرة لصحيفة فى برمنجهام . وفى سنة ١٧٣٥ أخرج أول إنتاج أدبى له غفلاً من التوقيع وهو ترجمة موجزة لترجمة فرنسية لكتاب « رحلة إلى الحبشة » تأليف الأب « لوبو » باللغة البرتغالية ، وفى نفس السنة تزوج من أرملة تكبره سنّاً اسمها السيدة « الزابيث بورتر » (Elizabeth Porter) وأسس — بمعاونتها المالية — مدرسة خاصة فى قرية بالقرب من ليتشفيلد غير أنه لم يوفق فى تجربته هذه ، وفى سنة ١٧٣٧ اصطحب دافيد جارك (David Garrick) — أحد تلاميذه الذى صار فيما بعد غلاماً المسرح الانجليزى — إلى لندن وهناك شرع يكافح بقلمه طلباً للرزق ، فكتب لمجلة مشهورة اسمها The Gentleman's Magazine أسسها صاحب مطبعة اسمه « إدوارد كيف » (Edward Cave) عام ١٧٣١ .

وظل يكتب مقالات فى هذه المجلة بين عامى ١٧٣٨ و١٧٤١ تحت عنوان «البوشيا العظمى» (Magna Lilliputia) موضوعها مناقشات أعضاء البرلمان ، وذلك أن الصحفيين كانوا ممنوعين من دخول البرلمان فكان جونسون ينتظر خارجه من يفضى إليه بما حدث وبما قيل فى المجلس فينقله بدوره

وبعبارته إلى مجلته . فزاد الاقبال على هذه المجلة اعتقاداً من الجمهور أن مقالاته هي نفس الألفاظ التي فاه بها أعضاء المجلس . غير أنه درج على استعارة أسماء خاصة بدلا من الأسماء الحقيقية « فلبوشيا » العظمى مثلاً بدلا من بريطانيا العظمى وهكذا . وفي سنة ١٧٤١ استقال من عمله في المجلة لأنه أبى — على حد قوله — أن يكون شريكا في نشر هذا الكذب والبهتان . ولا بد من الاعتراف بأن قراره هذا ينطوى على الكثير من الشجاعة لأن لندن وقتئذ لم تكن — كما ذكرنا من قبل — فردوساً للفقراء والمعوزين . حينما اتخذ جونسون هذا القرار كان يعلم حق العلم أن شبخ الزج في السجون يحوم حوله فأخذ يهيم في الطرقات ليل نهار حتى لا يمكن القبض عليه والزج به في السجن ، ولهذا السبب كان يعرض قلمه لكتابة أى شيء يرتزق منه فأصبح بهذا محترفاً للكتابة ، فيكتب المقدمات لكتب الاقتصاد أو دواوين الشعراء أو المواعظ الدينية كما كان يكتب بعضها للقساوسة . وبهذا المجهود الجبار نجح في ألا يقع في غياهب سجن المدينين .

وفي أوائل سنة ١٧٣٨ — قبل أن يكتب للمجلة — أنشأ أهجية سماها « لندن » وكانت غفلاً من التوقيع كما كانت تقليداً للأهجية الثالثة للشاعر الرومانى « جوفينال »

(Juvenal) . وموضوعها بإيجاز أن شخصاً خيالياً اسمه « تاليز » ضاق بلندن وخطاياها فتركها ليعيش في الريف ، وبينما كان متوجها إلى الريف عبر عن خواطره الثائرة لانحلال زمنه وظلم الفقير فيه وغلطسة الغنى وذبوع العادات الفرنسية الماجنة والخطورة التي يتعرض لها ساكن لندن من السلب والنهب . فاستقر « تاليز » في الريف هرباً من حياة لندن . والغريب في الأمر أن جونسون ينشئ مثل هذه القصيدة في الوقت الذي أحب فيه لندن حباً جماً وهجر من أجلها الريف . وفي سنة ١٧٤٤ كتب « تاريخ حياة ريتشارد سافدج » (The Life of Richard Savage) . وكان سافدج شاعراً فقيراً بوهيمياً ينتقل من مقهى إلى آخر شريكاً لجونسون في فقره وعوزه وهيمانه في الطرق . ومع أن هذين الصديقين على طرفي نقيض في الميول والأخلاق ربطت بينهما أواصر المحبة إلى حد دفع جونسون أن يكتب تاريخ حياة صاحبه من غير أن يزرى به في حكمه مع أنه كان عريداً ماجناً .

وفي سنة ١٧٤٧ عرض على اللورد تشستر فيلد (Chesterfield) مشروعاً بتصنيف قاموس للغة الانجليزية ، وكان يعوزها حتى أوائل القرن الثامن عشر قاموس جامع ، إذ كانت قوائم الكلمات الصعبة مع شرح بسيط تقوم مقام

القواميس حتى ذلك التاريخ . وفي سنة ١٧٢١ وضع  
ناتان بيلي (Nathan Bailey) قاموساً اشتقاقياً سماه « القاموس  
الانجليزى العام » حاول فيه أن يسجل جميع الكلمات  
الانجليزية مستعملة أو مهجورة . أما جونسون فكان مشروعه  
على حد قوله لإيجاد « قاموس يبحث فيه نطق لغتنا  
الانجليزية ، وتوضع جميع الكلمات الأصلية والدخيلة  
تحت تصرف القارئ ، ويحفظ فيه اللغة نقاؤها ، ويتحقق  
به من صحة استعمالها ، وبسببه تطول حياة اللغة » . وكان  
غرض جونسون من عرض هذا المشروع على اللورد تشستر فيلد  
أن يرعاه ويتولى الإنفاق عليه ، غير أن اللورد - وقد  
كان مشغولاً بمهام الدولة وبآثار نفسه الأدبية - أهمل  
جونسون ، ولم يذكره إلا في فبراير سنة ١٧٥٥ حينما  
أظهر جونسون - بعد جهد جهيد - قاموسه متولياً أمره  
بنفسه . فكتب اللورد مقالين يشيد فيهما بهذا القاموس ،  
فأثار مديحه غضب جونسون وأرسل إليه خطاباً شهيراً  
يرفض فيه مديحه ويلومه على إهماله له ويشن غارة على  
نظام الرعاية للأدباء [ وهذا الخطاب الشهير ترجمه الأستاذ  
الدكتور محمد مهدى علام عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس  
ترجمة أدبية رفيعة في كتاب « المطالعة الوافية للمدارس الثانوية »  
- الجزء الثالث ص ١٥ مطبعة كوستا تسوماس (سنة ١٩٥٥) ] .

وفي سنة ١٧٤٩ نشر جونسون أهميته الثانية على غرار  
الأهجية العاشرة « لجوفينال » وعنوانها: « زيف الأمانى البشرية »  
(The Vanity of Human Wishes) ، وفيها يعالج الشاعر  
الموضوعات المختلفة للطموح الإنساني ، ثم يبين عبثها . فيبدأ  
بالسلطة ويتخذ مثالا لها أصحاب السلطة في تاريخ إنجلترا  
الذين دالت دولتهم بعد أن كانوا أصحاب الحول والطول . ثم  
ينتقل إلى هؤلاء الذين كان لهم قدم راسخة في العلم وآل أمرهم إلى  
الاستشهاد والنسيان . ثم يتحول إلى المجد العسكري وما انتهى  
إليه من هلاك ودمار في ميادين القتال . وأخيراً يعالج التعذيب  
الذي يعانيه هؤلاء الذين يقطعون في الهرم والشيخوخة شوطاً  
بعيداً ، والأخطار التي تصاحب الجمال الجسمي . وينتهي من  
كل ذلك إلى أن الإنسان لا حول له ولا قوة إلا أن يتولاه  
الله برحمته .

وفي نفس السنة قام جارك — وقد بلغ وقتئذ القمة في  
الشئون المسرحية — بتمثيل المأساة الوحيدة التي كان قد ألفها  
جونسون وهو يدرس في مدرسته الخاصة بالقرب من ليتشفيلد .  
ومع أنها لم تكن ناجحة إلا أن جارك — اعترافاً منه بجميل  
أستاذه — صمم على استمرارها حتى حصل لجونسون من ورائها  
على ثلاثمائة جنيه . واسم هذه المأساة « ايرين » (Irene)  
وهي لا تخرج عن كونها سلسلة من الحوار الفلسفي والبلاغي

بين محمد الفاتح سلطان الترك وبعض مرافقيه وبعض أسراه من الإغريق .

وفي سنة ١٧٥٠ بدأ جونسون النشر في مجلة نصف أسبوعية اسمها « المتجول » (The Rambler) ، واستمر في نشرها حتى ماتت زوجته سنة ١٧٥٢ بعد أن كتبها كلها — ماعدا خمسة أعداد منها — بنفسه . وكانت هذه المجلة تحتوى موضوعات أخلاقية مختلفة الغرض منها حمل الناس على التعلق بالحكمة والتقوى وعلى الدقة وحسن الاختيار في التعبير باللغة الانجليزية . وهذه المجلة على جفافها وبعدها عن المشاهد المحسوس كان يتداول منها خمسمائة عدد . ومع أن جونسون كان مشغولا بهذه المجلة لم يمنعه هذا من الاشتراك في الكتابة إلى المجلات الأخرى بالإضافة إلى عمله الجبار وهو جمع القاموس الكبير للغة الانجليزية الذى كان شغله الشاغل منذ سنة ١٧٤٧ .

وفي سنة ١٧٥٥ بلغ أوج مجده وشهرته بنشره هذا القاموس في مجلدين من القطع الكبير . والجديد في هذا القاموس مراعاته للقواعد الآتية :

أولا — أنه اعتبر اللغة الانجليزية الحديثة تبدأ من منتصف القرن السادس عشر في عهد الملكة « اليزابيث » . فقصر قاموسه على الكلمات التى كانت متداولة منذ ذلك التاريخ إلى عهده .



ثانياً — أنه راعى فى تعريف الكلمات الصعبة أن يكون بعبارات سهلة واضحة غير أنه لم يوفق فى هذا فى كثير من الأحيان فأصبح بعض تعريفاته أشد تعقيداً من الكلمات المعروفة حتى صار ذلك موضوعاً للتندر والدعابة .

ثالثاً — أنه عنى بالناحية الاشتقاقية غير أنه لم يوفق فيها تمام التوفيق لأن علم الاشتقاق لم يكن قد بلغ بعد ما بلغه الآن من النمو والازدهار . أما الجديد الفريد فى هذه الناحية فهو عنايته بتبيان المعانى المختلفة فى العصور المتباينة لكل مادة لغوية مستشهداً على ذلك بأمثلة من كلام الكتاب والشعراء .

وفى نفس السنة كتب كثيراً من المقالات أهمها رد على كتاب كان شائعاً وقتئذ واسمه « بحث حر فى طبيعة الشر وأصله » لكاتب اسمه « سوم جننز » (Soame Jenyns) . وقد استند هذا الكتاب إلى نظرية ليبنتز القائلة بأن هذا العالم خير العوالم الممكنة ، وأن أساسه انسجام جميع عناصره انسجاماً يتمشى مع الحكمة الإلهية . ومن هنا يقف هذا الانسجام حاجزاً منيعاً أمام الشر ، وما قد نظنه شراً لا بد أن يكون خيراً فى النهاية ، غاية الأمر أن الحكمة الإلهية قد اقتضته لسر لا نستطيع إدراكه . وكان الباعث الرئيسى على نشر هذا الكتاب وذيوعه هو حادث أليم حدث فى نفس السنة وهو الزلزال الكبير الذى تصدعت بسببه

مدينة لشبونه ، وقتل فيها ثلثا أهلها ، فتمس رجال الكنيسة ومعهم هذا المؤلف سبباً خيراً معقولا لحدوث هذا الزلزال الذى ذهب ضحيته هذا العدد العديد من الأبرياء . واستند جونسون فى رده على هذا الكتاب إلى مسيحية تقليدية ترى أن الحياة بعد خروج آدم من الجنة مرحلة مليئة بالآلام التى يمكن تفسير بعضها وأغلبها لايقبل التفسير ، وأنه لا أمل فى الخلاص من هذا الشقاء إلا بالفناء واتصال الروح بالملاء الأعلى . فكان رد جونسون ينطوى على الكثير من الشجاعة ومواجهة الحقيقة وحمل الناس على ألا يخذعوا أنفسهم بأنفسهم .

وفى سنة ١٧٥٩ ماتت أم جونسون وهو فى أمس حاجة إلى الإنفاق على دفنها ، فكتب قصة فلسفية اسمها « راسلاس : أمير الحبشة » فى سبع ليال على حد قوله ، وباعها لثلاثة من الناشرين بمائة جنيه استطاع بها أن ينفق على جنازة أمه ويوفى بعض الديون الضئيلة التى كانت قد التزمت بها من قبل . وكانت هذه القصة بمثابة رد على نظرية التفاؤل التى دعا إليها كل من لينتز و سوم جننز ، وكان قد بدأ رده فى مقاله عن كتاب سوم جننز . ومن الغريب أنه فى نفس السنة وقبل نشر « راسلاس » بشهرين ظهرت قصة « كانديد » لفولتير . وكان

الغرض منها أيضاً تفنيد نظرية التفاؤل الشائعة وقتئذ وإثبات أنه في حياتنا الحاضرة يتغلب الشر على الخير ، غير أن فولتير في قصته الفلسفية كان يهدف إلى التشكيك في وجود إله خير كما كان يدعو إلى السخرية من الدين . أما « راسلاس » ففيها يرمى جونسون إلى أن الحياة الدنيا عبث وزينة وأن أمل الإنسان في الخلاص هو في أن يسمو حتى يتصل بالذات الإلهية . فنظرية فولتير نظرية تشكيك في الإله والدين ، ونظرية جونسون تنطوي على زهد وإيمان .

وفي سنة ١٧٦٢ منحته رئاسة الوزارة معاشاً سنوياً قدره ثلاثمائة جنيه لا لخدمات مستقبلية - كما قال رئيس الوزارة في خطاب المنحة - بل 'اعترافاً وتقديراً للمركز السامي الذي كان قد بلغه آنئذ . وفي السنة التالية صادق <sup>MOSE</sup> « جيمز بوزويل » (James Boswell) الذي لازمه طيلة حياته مسجلاً أحاديثه وآراءه في خطر الشئون وحقيقتها ، والذي خلد ذكره بعد وفاته بترجمة رفعتة أكثر مما رفعتة آثاره إلى السماكين .

وفي سنة ١٧٦٥ أخرج جونسون آثار شكسبير بعد تنقيحها والتعليق عليها . وقدم لهذه الطبعة بمقدمة مشهورة ضمنها رأيه في شكسبير متأثراً إلى حد بعيد بالذوق العام

للقرن الثامن عشر الذى كان يتطلب الاتزان والمنطق فى كل أثر أدبى . ويتلخص رأيه فى أن لشكسبير المزايا الآتية :  
أولاً — أن شكسبير يسمو بأشخاص مسرحياته من الفرد إلى النوع ، ولهذا تنطبق حالاتها على الكثير من الناس .  
ثانياً — يمتدح شكسبير لواقعيته ، إذ ليس فى مسرحياته أبطال : بل لكل شخص فى المسرحية قيمته الفنية ووزنه الفلسفى . ومن مظاهر واقعيته أيضاً أنه لا يلتزم الأسى والحزن فى المأساة كما لا يلتزم الهزل فى الملهاة ، بل يمزج الأمرين معاً فتخرج المأساة أو الملهاة صورة مصغرة من الحياة الواقعية .

ثالثاً — يمتدحه لخلود أسلوبه وإعجازه ، فإنه رغم أن شكسبير كتب فى أواخر القرن السادس عشر كان يتذوق أسلوبه فى القرن الثامن عشر ، كما أنه لم يستطع كاتب أو شاعر أن يسمو إلى درجته فى الأسلوب .

وأما عيوب شكسبير فى نظر جونسون فهى :

أولاً — أن مسرحياته لا ترمى إلى غرض أخلاقى تهذيبى ، فهو أحرص على إسعاد جمهوره منه على نصحتهم وإرشادهم . وفى هذا رأى تنعكس قواعد النقد التى كانت شائعة فى القرن الثامن عشر والمتأثرة برأى هوراس الشاعر الناقد الرومانى . وهى أن وظيفة الشاعر أن يصوغ

إيجاءه وتوجيهه للآخرين في قالب بهيج ممتع ، وأن يضمن إيساعده الناس تهذيبهم وإرشادهم .

ثانياً — . أن مسرحياته غير محبوكة الأجزاء ، وفي هذا الرأي أيضاً تنعكس نظريات النقد المتقدمة التي تتطلب في كل أثر أدبي تماسك أجزائه تماسكاً منطقياً يكاد يكون رياضياً ، كما تتطلب أن يسهم كل عنصر من عناصره في تحقيق الغرض الذي وضع من أجله ذلك الأثر الأدبي .

ثالثاً — أن شكسبير لا يتقيد بوحدة الزمان أو المكان أو الوقائع ، فهو يطوف في قصصه حول نصف العالم في أزمنة متباعدة ، كما أن وقائعه لا تنحصر في موضوع واحد . ونرى في هذا كذلك اتجاه القرن الثامن عشر نحو التقيد بالقواعد التي وضعها أرسطو للمسرحية في كتابه « فن الشعر » .

وأخيراً عاب جونسون على شكسبير غلظته في حواراته الفكاهي ، وكثرة استطراداته في أخبار رواته ، وغرامه باللعب بالألفاظ إلى حد يمل منه الذوق المتحضر .

ومع أن جونسون ينقد شكسبير ويسرد له هذه العيوب لا ينكر عليه أنه العبقرية الفذة في جميع أدوار الأدب الانجليزي . وفي السنوات العشر التالية قام جونسون رغم شيخوخته برحلات صحبه فيها « بوزويل » . ومن الغريب أنهما قاما بأغلبها ماشيين . وقد سجل كل منهما مذكراته في كتاب .

وفى سنة ١٧٧٧ بدأ جونسون آخر مجهود أدبى فى حياته وهو أن يعد موسوعة لأهم الشعراء الانجليز ، وكان قد اقترحه عليه وفد من الوراقين فى لندن . وكان هم جونسون فى هذه الموسوعة أن يقدم فيها لشعر كل شاعر بتاريخ حياة الشاعر ونقد جونسون لشعره . وكان هذا بمثابة تجديد فى النقد ، فكأن جونسون كان يتنبأ بالنقد الرومانتيكى الذى يحاول دائماً أن يربط حياة الشاعر بشعره . وفى سنة ١٧٧٩ حينما انتهى جونسون من إعداد مقدماته قرر الوراقون أن ينشروها مستقلة عن أشعار الشعراء تحت اسم « تراجم الشعراء » واستمر نشرها تبعاً بين سنتى ١٧٧٩ و ١٧٨١ . ومع أن غرضه الأسمى من هذه الموسوعة هو تسجيل أشعار الشعراء من عهد تشوسر حتى زمنه إلا أنه بدأ اختياره من شعراء النصف الثانى من القرن السابع عشر بادئاً بأبراهام كاوى (Cowley) .

وبهذا قصر جهده على تراجم اثنين وخمسين شاعراً من بينهم من لا يستحق الذكر فى هذه الموسوعة ، بينما تخطى بعض الشعراء الجديرين بالذكر فيها .

وفى سنة ١٧٨٤ بعد سنتين من مرض عضال وبعد فقدانه أغلب أصدقائه ما عدا بوزويل الصديق الوفى مات جونسون فى الخامسة والسبعين من عمره .

ومع أن جونسون كان يعتبر فريد عصره فإن إنتساجه

الفعلی أقل من شهرته . وقد يكون هذا راجعاً إلى السجل الخالد الذى سطره قلم بوزویل فى تاریخ حياته ، غير أن الأدباء والنقاد فى القرن العشرين بدأوا يتخطون ما كتبه بوزویل ، ويتجهون إلى آثار جونسون مباشرة ليتذوقوا أدبه من آثاره بحاسة جديدة .

\* \* \*

وفى ١٣ من يناير سنة ١٧٥٩ علم أن أمه على وشك أن تفارق هذا العالم وكان فى حاجة ماسة إلى نقود ، فاتفق مع أحد الوراقين على أن يؤلف له قصة واقترح أن يسميها « اختيار طريق الحياة » أو « تاریخ ... أمير الحبشة » على أن يدفع له خمسين ومائة جنيه عن الطبعة الأولى وخمسة وعشرين جنيهاً عن كل طبعة تالية . غير أن بائع الكتب استغل ضيق ذات يده فلم يعطه سوى مائة جنيه . وماتت أمه فى ليتشفيلد وهو مشغول بكتابة قصته فأرسل مقدم أتعابه ( عشرين جنيهاً ) للإنفاق على جنازتها ودفنها . واستغرق تأليف القصة سبع ليال ، وظهرت فى ١٩ من إبريل سنة ١٧٥٩ .

أما اسم « راسلاس » الذى اشتهرت به القصة بعد وفاة جونسون فهو اسم البطل فيها ، وقد استعاره جونسون من كتاب « رحلة إلى الحبشة » للأب لوبو . وفى صفحة ١٠٢ من ترجمته لهذه الرحلة ذكر اسم « راسيلا كريستوس » وهو قائد السلطان « سحيد » سلطان الأحباش . وفى صفحة

٢٦٢ حاول جونسون تحليل هذا الاسم ذا كرا أن الجزء الأول منه « راس » لقب لرئيس قبيلة في الحبشة ولكنه لم يعرض لتحليل بقية الاسم . وقد رجعنا إلى الأستاذ الدكتور مراد كامل رئيس قسم الدراسات السامية بكلية الآداب جامعة القاهرة فعلمنا منه أنه من المحتمل أن يكون « راسلاس » تحريف « راس سيلا كريستوس » ، و « راس » في اللغة الأمهرية تقابل « رأس » في العربية و « روش » في العبرية ، ومعناها رأس أو قائد أو أمير . ومعنى « سيلا كريستوس » في الأمهرية كذلك « لأجل المسيح » أو « صورة المسيح » أو « وجه المسيح » . والذي يتبادر إلى الذهن أن هذه التحليلات لم تخطر ببال جونسون ساعة أن اختار هذا الاسم ، وإن كان قد اختاره لأنه يوحى إلى الذهن بأنه من أصل حبشى ، وأنه يسهل في الوقت نفسه على اللسان الانجليزى التلفظ به .

وأما اسم « نكاية » أخت « راسلاس » و « بكواه » وصيغتها فيحتمل - في رأى الدكتور مراد كامل - أن يكونا من الأسماء الحبشية ، وأن يكون الأول مشتقاً من الفعل الحبشى « نكاى » بمعنى نكى ، يقال في العربية نكى العدو وفي العدو نكاية أى جرحه وقتله ، وأن يكون الاسم الثانى مشتقاً من الفعل الحبشى « بكأى » بمعنى بكى .

ومن طريف ما يرويه لنا الدكتور مراد كامل أن الأسماء



المستكرهه كانت مقصورة على الأشراف من الأحباش وأما  
الأسماء المستحبة فكانت للعبيد والإماء . وتفسير ذلك يتضح  
من رواية الرحالة العربي الذي سأل الأحباش عن سر هذه  
التسميات فأجيب بأن أسماء الأشراف يقصد بها إلحاق الأذى  
والشر بالأعداء ، وأما أسماء العبيد والإماء فهي للأشراف  
أنفسهم لأن العبيد والإماء ملك لهم .

وأما إملاك فلعله - جبر أملاك - ( أى عبد الرب  
أو عبد الله ) ولا يزال هذا الاسم شائعاً بين الأحباش . ومن  
المحتمل أن يكون جونسون أراد أن يختصر هذا الاسم فبدل  
أن يبقى المضاف ويحذف المضاف إليه عكس الآية وأطلق  
على فيلسوفه « أملاك » ( الرب ) عن غير قصد وهذا رأى  
الدكتور مراد كامل أيضاً .

ولم يكن هدف جونسون من قصته أن يصف وصفاً  
دقيقاً الحياة في الحبشة والقاهرة وهما مسرح أبطاله لأن  
علمه بهذين المكانين محدود إلى حد بعيد ، إنما سر اختياره  
لهذا النوع هو أن القصة الشرقية كانت محبوبة في القرن الثامن  
عشر لسببين : أولهما - أنها كانت تعتبر مسرحاً يلجأ إليه  
خيال القارئ بدون تقيد بالمعقول أو المحتمل . وثانيهما -  
وهو ما يعيننا في هذه المناسبة - هو أن القصة الشرقية كانت  
تصلح قالباً للجدل الفلسفى ، إذ يبعدها عن بيئة القارئ

تسمح له أن يفكر فى الموضوعات بعقل حر بعيد عن الغرض .  
كما يستطيع كاتب هذه القصة أن ينقد الآراء أو المجتمعات  
علانية بدون خوف من محاسب أو رقيب . فقصة « راسلاس »  
ليست سوى جدل فلسفى اجتماعى تنكر فى صورة قصة  
شرقية ، ولم تكن قصة موضوعة لمجرد اللهو والتسلية . فلا  
غرو إذا خرجت لهذا السبب ضعيفة السبك غير مثيرة للخيال .  
على أن الغرض الأساسى من قصة « راسلاس » هو ما قدمناه  
من الثورة على روح التفاؤل والديانة التى تتطلب لكل ظاهرة  
من ظواهرها سبباً معقولاً ، إذ هى فى الواقع عبارة عن  
قصة أمير لا يشعر بالسعادة فى واد سعيد ، فيهرب منه باحثاً  
عن السعادة برفقة فيلسوفه وأخت شاركته الحيرة والملل فلا  
يجدها خارج الوادى بعد أن قطع مساحات شاسعة واختلط  
بأوساط متباينة فيقرر العودة إلى الوادى كسير الخاطر موفور  
الحكمة .

ويرجع روح التشاؤم التى تسود قصة « راسلاس » إلى أمرين  
أحدهما — أن جونسون كتبها فى أشد الظروف بؤساً وحزناً .  
وثانيهما — أنه كان يحاول تنفيذ نظريات فلسفية شائعة فى  
زمانه فيوضح عبث البحث عن السعادة والنظر إلى الحياة نظرة  
خيالية ، ويدفع الناس إلى التفكير فى الواقع والتعلق بأهداب  
الحقيقة .

وقبل أن أختتم مقدمتى أذكر كلمة موجزة عن الترجمتين العربيتين اللتين سبقتا هذه الترجمة : إحداهما ترجمة الأستاذ الدكتور لويس عوض ، وقد غنى فيها صاحبها بكشف معميات الأصل فوفق فى ذلك أتم التوفيق . ومع هذا ليس من العدل أن نحكم على ترجمة لاتزال خطية ولم ينشرها صاحبها بعد وهى مازالت قابلة للتغيير والتبديل . وثانيتهما — ترجمة الأستاذ سيد أحمد فهمى المطبوعة بمطبعة شركة دار الطباعة المصرية بشارع الدواوين بالقاهرة ( سنة ١٩٢٢ ) ، وعنوانها « راسيلاس أو البحث عن خير مناهج الحياة » ، وقد أفدنا منها أحيانا وإن كانت قد أجهدتنا كثيراً فى مقابلة الترجمة بالأصل فكثيراً ما كان يحلو للأستاذ الوصف فيبالغ فيه بمبالغة لأساس لها فى الأصل . كما أننا قد عثرنا على نصوص فى الأصل ليس لها مقابل فى الترجمة ، على أنه قد خفى على المترجم الكثير من معميات هذا الأصل . فضلا عن أن الأستاذ كان مولعا بحشو أوصافه أحيانا بغريب اللغة من غير مقتضى ، ثم يضطر إلى شرح الغريب فى هوامش القصة ، وأدى هذا إلى أن أسلوبه لم يسر على مستوى واحد ، فبينما هو يسمو تارة إلى مرتبة العربية الفصحى إذا به يتنزل تارة أخرى إلى درجة العامية الدارجة .

وأما نحن فلا ندعى العصمة فى ترجمتنا التى اخترنا .

نشرها في هذا الوقت بمناسبة مرور مائتي سنة على ظهور أول طبعة لهذه القصة ، فقد يكشف القراء فيها الكثير من المساوئ ، غير أننا قد توخينا جهدنا أن نسير مع الأصل جنباً إلى جنب حتى في الطريقة التي اتبعها المؤلف في التعبير عن معانيه مادامت الترجمة عربية صحيحة مفهومة ، وبذلك وضحت معالم الطريق لمن يريد أن يقابل الترجمة بالأصل . كما أننا قد قصدنا إلى أن يكون أسلوبنا على نمط واحد من السهولة والوضوح فلم نضف إلى تعقيد الأصل أحياناً تعقيداً في الترجمة .

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه السداد إنه نعم المولى ونعم النصير . .

١٩ من إبريل سنة ١٩٥٩

مجدى وهب



## الفصل الأول

### وصف قصر في واد

أنتم يامن تنصتون إلى همسات الخيال بثقة عيماء ،  
وتتشبثون بخدع الأمل تشبث الملهوف ، يامن تتوقعون أن  
الشيخوخة ستحقق مانعقه على الشباب من آمال ووعود ،  
وتظنون أن نقص اليوم سيكمله الغد — اعتبروا بحياة راسلاس  
أمير الحبشة .

كان راسلاس الابن الرابع لذلك الملك العظيم الذي  
ينبع من إقليمه ( النيل ) أبو الأنهار فتعم خيراته وهباته ،  
وتنشر فوق نصف العالم ثمار مصر .

وقد حددت إقامة راسلاس — على ماجرت به العادة  
التوارثة لدى ملوك تلك المنطقة الحارة عصرًا بعد عصر —  
في قصر خاص مع سائر أبناء الأسرة المالكة وبناتها حتى  
يستدعيه نظام الوراثة لتولى الملك .

أما المكان الذي قدر لإقامة الأمراء الأحباش بمقتضى  
حكمة القدماء أوسياستهم فقد كان واديا رحبا في مملكة «أمهره»

تحيط به جبال تشرف قممها على وسط الوادى . وكان الطريق الوحيد للوادى يمر بغار تعلوه صخرة ، وقد ثار حول منشئه جدل طويل هل هو من عمل الطبيعة أو من صنع الإنسان . وأما المخرج من ذلك الغار فكانت تحجبه غابة كثيفة ، وقد أغلق مدخله الذى يقع على الوادى برتاج ضخمة من الحديد صنعه الصانع قديما ، ولا يستطيع إنسان مأن يحركه إلا بمساعدة آلات خاصة .

وكانت تنحدر من الجبال روافد تملأ الوادى كله خضرة وخصوبة ، وتنتهى إلى بحيرة عامرة بكل أنواع السمك ، يتردد عليها جميع أنواع الطيور التى اعتادت غمس أجنحتها فى الماء ، وينصب فيضائها فى جدول يخترق الجبل شمالا فى أخدود مظلم ، فينحدر من صخرة إلى صخرة فى صوت رهيب حتى يتلاشى خريره فى النهاية .

وكانت سفوح الجبال مغطاة بالأشجار ، ووضفاف الأنهار تزينها الأزهار المختلفة ، كما كانت تحمل كل نسمة من الريح التوابل من الصخر ، وتسقط الثمار كل شهر على الأرض .

وكان يطوف بهذا المكان كل حيوان يرعى الحشائش أو يعيش على الشجيرات ، وحشيا كان أو أليفاً ، وهو آمن

من الحيوان الضارى ، وذلك بفضل الجبال المحيطة به . وكانت القطعان من الماشية ترعى فى جانب ، ويثب حيوان الصيد على الحشائش فى جانب آخر ، وتقفز الماعز المرحة على الصخور ، ويعبث القرد الماكر بين الأشجار ، ويقل الفيل الوقور تحت الظلال . فكانت كل الأنواع المختلفة فى العالم قد جمعت فى هذا المكان الذى أضيفت اليه خيرات الطبيعة واستبعد منه جميع شرورها .

وكان الوادى الرحب الحصيب يمد سكانه بضرورات الحياة ، يضاف إلى ذلك جميع مباهجها وأنواع الترف فيها عند الزيارة السنوية التى كان يقوم بها الملك لأولاده ، فيفتح الرتاج الحديدى عندئذ على نغم الموسيقى ، ويحتم على كل من يقطن الوادى أن يقترح كل مامن شأنه أن يجعل العزلة أكثر سروراً وأملأ بأنواع المرفهات ، وأن يقلل من ملل الأيام . وكانت الرغبات جميعها تحقق ، ويدعى جلاب اللهو والسرور لبث المرح فى ذلك العيد ، فيوقع فنانون الموسيقى النغمات المنسجمة ، ويرقص فنانون الرقص أمام الأمراء أملأ فى أن يقضوا حياتهم فى هذا الأسر السعيد . فلم يكن يسمح بالدخول فيه إلا لمن كانوا يعتقدون أن فنه يضيف جديداً إلى أنواع الترف . وكان من أثر المظهر المطمئن اللذيذ لهذه العزلة أن من رآها لأول مرة ود لوبقيت أبداً . ولما كان الخروج

مستحيلا لمن أغلق عليه الرتاج الحديدى لم يكن من السهل التعرف على أثر هذه التجربة الطويلة فى هذه الظروف . وبذلك كانت كل سنة تأتى بحيل جديدة لجلب البهجة وبمتنافسين جدد لهذا المعتقل .

وكان القصر على ربوة تعلو سطح البحيرة بثلاثين خطوة تقريبا ، وكان مقسما إلى ميادين وأفنية كثيرة ، كل منها يتناسب فى العظمة مع منزلة الشخص الذى بنى من أجله . وكانت الأسطح مصنوعة على شكل أقبية من الحجر الضخم يلتصق بعضها ببعض بالأسمنت ، وتزداد متانة على الأيام . وقد استمرت المباني قائمة من قرن إلى قرن تسخر من الأمطار والعواصف الاستوائية فى مواسمها دون حاجة للإصلاح والترميم .

وبلغت هذه الدار من السعة حدا لم يستطع معه أى شخص أن يتعرف على نواحيها المختلفة سوى البعض من قدامى الضباط الذين كانوا يتوارثون أسرار المكان ، فكانت مبنية بنظام كأن الشك نفسه قد أملى تصميمه ، فلكل حجرة ممران أحدهما معروف والآخر سري ، ولكل ميدان اتصال بغيره إما من الطبقات العليا فى ممرات خاصة ، وإما من سراديب تحت الأرض بين الغرف السفلى . وكان الكثير من الأعمدة



أجوف على غير انتظار ، وقد أودعت فيها أجيال طويلة من  
الملوك كنوزهم ثم سدوا الفتحة برخام لا يحرك إلا في  
الضرورات القصوى للدولة . أما السجل الذى سجلت به  
هذه الكنوز فكان مخفيا فى برج لا يدخله غير الملك نفسه  
بصحبة ولى عهده .



## الفصل الثاني

### راسلاسل غير قانع بالوادي السعيد

في ذلك المكان كان يعيش أبناء الحبشة وبناتها لا يعرفون غير التنقل بين الدعة والسرور مصحوبين بكل من كانت له كفاية خاصة في إدخال البهجة على النفوس ، وممتعين بكل ما يمكن أن تتمتع به الحواس ، وكانوا يتنقلون بين الرياض الفيحاء ، وينامون في حصن الأمان ، ويستعمل كل ضرب من ضروب الفنون ليزين لهم ما هم فيه من أحوال . فالحكام الذين كانوا يقومون بتعليمهم لم يحدثوهم عن شيء سوى متاعب الحياة العامة ، ووصفوا كل ما وراء الجبال بأنه مناطق للمصائب يسودها دائماً الشقاق ، ويفترس فيها الإنسان الإنسان .

وليرداد تقديرهم لما هم فيه من سعادة كانوا ينشدون كل يوم أغاني موضوعها « الوادي السعيد » ، وتثار رغباتهم بما يسردون عليهم من أنواع المتع المختلفة . فكان موضوع كل ساعة من فجر اليوم إلى مسائه البهجة والسرور .

وكثيراً ما كانت تنجح هذه الأساليب فلم يرغب إلا القليل من الأمراء في توسيع حدودهم ، بل كانوا يقضون حياتهم معتقدين تمام الاعتقاد أنهم حصلوا على كل ما يمكن أن تهبه الصنعة أو الطبيعة ، كما كانوا يشفقون على من لفظهم القدر من مقام السكينة هذا ضحية للمصادفة وعبداً للبؤس .

وهكذا كانوا يستيقظون نهراً ، وينامون ليلاً مسرورين بعضهم مع بعض ومع أنفسهم . كلهم ماعدا راسلاس الذى بدأ فى السنة السادسة والعشرين من عمره يعرض عن ملذاتهم ، وينسحب من مجتمعاتهم ، ويجد البهجة فى سراه المنفرد وتأملاته الصامتة . وكثيراً ما كان يجلس إلى الموائد مليئة بكل المشهيات وينسى أن يتذوق شيئاً مما أمامه ، وينهض فجأة وسط الأغاني ، ويسرع إلى عزلته بعيداً عن صوت الموسيقى . لاحظ جلساؤه هذا التغير ، وحاولوا أن يعيدوا إليه حبه للبهجة والسرور ، فكان يتجاهل حركاتهم الفضولية ويرفض دعوتهم ، ويقضى يوماً بعد يوم على ضفاف الروافد تظللها الأشجار حيث كان ينصت تارة لتغريد الطيور فى الأفنان ، ويرقب تارة أخرى الأسماك تعبت فى الجداول ، ثم يرمى ببصره إلى المراعى والجبال العامرة بالحيوان ، بعضه يرمى الحشائش ، والبعض الآخر يقبل بين الشجيرات .

لفتت هذه الغرابة في مزاجه إليه الأنظار ، فنبهه خفية  
حكيم كان راسلاس معجباً بحديثه من قبل أملا في  
أن يكشف سرقلقه . أما راسلاس فقد أطل النظر حيناً إلى  
الماعز التي كانت ترعى بين الصخور ، وبدأ يوازن بين  
حالتها وحاله غير شاعر أن أحداً على مقربة منه .

فقال : « ما الذى يميز الإنسان عن غيره من سائر  
المخلوقات الحيوانية ؟ كل حيوان يهيم بجانبه له من الحاجات  
الجسمية مالى . فهو إذا جاع رعى الحشائش ، وإذا ظمى  
ارتوى من الجدول ، فيخف جوعه ويطفأ ظموه فيقنع  
وينام ، ثم ينهض ثانية ويجوع فيأكل من جديد فيرتاح .  
أما أنا فجائع مثله ، وظمآن مثله ، ولكن حينما يزول  
الجوع ويطفأ الظمأ لا أشعر بالراحة . وأنا مثله أتألم للخلو  
والجوع ، ولكنى لست مثله قانعا بالامتلاء والشبع . والساعة  
المتوسطة بين الخلو والامتلاء مملّة ومظلمة . وأنطلع إلى  
الجوع لعله يشير انتباهى مرة ثانية . فالطير يلتقط العناب  
أو الحب فيطير إلى الغابات حيث يجلس فى سعادة ظاهرة  
على الأغصان ، ويقضى حياته فى تغريد سلسلة رتيبة من  
الأنغام . وأنا أيضاً أستطيع أن أدعو العواد والمغنى ، ولكن

النعم الذى أطربنى بالأمس يملنى اليوم ، وسيكون أكثر  
إملالا غداً . وإنى لا أرى فى نفسى قوة للإدراك ليست  
مشبعة بسرورها الحق ، ومع ذلك لا أشعر أنا نفسى بالسرور ،  
فلا بد أن للإنسان حاسة كامنة لا يشبعها هذا المكان ، أو أن  
له بعض رغبات ليست لها صلة بالحاسة ، ويجب أن تشبع  
قبل أن يكون الإنسان سعيداً » .

عندئذ رفع رأسه ، ولما رأى القمر يتألق اتجه نحو  
القصر . وعندما مر بالحقول ، ورأى صنوف الحيوان حوله  
قال : « أنتم سعداء ، ولستم فى حاجة إلى أن تحسدونى على  
سيرى هكذا بينكم مثقلاً بأعباء نفسى ، كما أننى أيتها الكائنات  
الرفيقة لأحسدكم ، فإن سعادتكم ليست مما يستطيع أن يتمتع  
به الإنسان . إننى أشكو هموماً أنتم خالون منها ، وأخشى  
الآلم حين لا أشعر به ، وأحياناً أقشعر لذكر شرور ماضية  
وأرتعد لشرور أتوقعها ، ولا أستطيع أن أشك فى أن العدالة  
الإلهية قد وازنت بين مأس معينة ومتع خاصة ، فوهبتنا  
من السعادة التى ننعم بها بقدر ما أذاقتنا من الشقاء الذى  
نقاسيه » .

وبمثل هذه التأملات كان الأمير يسرى عن نفسه فى  
طريق العودة ناطقا إياها بصوت حزين ، غير أن وجهه  
كانت تلوح عليه أمارات الرضا بحدة ذكائه ، والتعزى  
عن متاعب الحياة بيقظته لركة شعوره وبلاغة التعبير التى  
يرثى بها لنفسه فاندمج بابتهاج فى مرفهات المساء ، وسر  
الجميع حينما وجدوه منشراح الصدر .



## الفصل الثالث

### حاجات من لا يحتاج شيئاً

وفى اليوم التالى بعد أن تصور معلمه الشيخ أنه قد وقف على علته العقلية أمل أن يبرئه بالنصح والوعظ ، وجدّ في انتهاز فرصة للحديث لم يرغب الأمير رغبة صادقة في إتاحتها له ، لأنه كان يعتبره مجهد العقل والفكر ، ثم قال : « لماذا يتدخل هذا الرجل فى شئونى ؟ ألا يباح لى أن أنسى هذه المحاضرات التى سرتنى فقط حينما كانت جديدة ، والتى يجب أن تنسى لتتصبر جديدة مرة أخرى ؟ » . ثم توجه إلى الغابة وأعد نفسه لتأملاته المعتادة ، وحينما أدرك - قبل أن تستقر أفكاره - أن مطارده بجانبه دفعه نفاذ صبره أول الأمر إلى أن يسرع فى الابتعاد عنه ، غير أنه لم يرد أن يغضب رجلاً كان يوماً ما يحله ومازال يحبه ، لذلك دعاه للجلوس معه على ضفة الجدول .

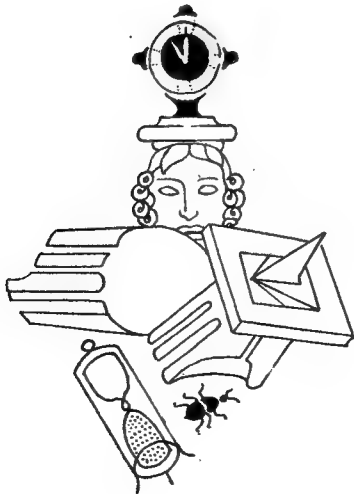
ولما رأى الشيخ هذا النحو من التشجيع شرع يرثى للتغير الذى لوحظ أخيراً على الأمير ، ويتساءل لماذا يجتنب غالباً مباهج القصر ، ويجنح إلى حياة الوحدة والسكون . فأجاب الأمير : « إننى أفر من السرور لأنه لم يعد يطربنى ، وأحياناً

حياة العزلة لأننى بائس ، ولا أريد أن أكدر بحضورى  
سعادة الآخرين . » . قال الحكيم : « أنت يا سيدى أول من  
شكا من البؤس فى الوادى السعيد ، وإنى آمل أن أقنعك  
بأن شكواك لا أساس لها من الحقيقة . أنت هنا تحصل تماماً  
على كل ما يمكن أن يمنحه ملك الحبشة ، ولا يوجد  
هنا عمل يثقل الكاهل ولا خطر نخشاه ، ومع ذلك تجد  
هنا رهن إشارتك كل ما يجلبه العمل من خيرات وما تنتجه  
المخاطرة من ثمار . انظر حولك وخبرنى أى حاجة لك لم  
تقض . وإذا كنت لا تحتاج شيئاً فكيف لا تكون سعيداً ؟ » .  
فأجاب الأمير : « إن سبب شكواى هو أننى لا أحتاج  
شيئاً ، أو هو أننى لا أعرف ماذا أحتاج . فلو كانت لى أية  
حاجة معروفة لكانت لى رغبة معينة ، ولأثارت تلك  
الرغبة مجهوداً ، وحينئذ لا أتحرق حسرة كلما أرى الشمس  
تتحرك بهذه الدرجة من البطء نحو الجبل الغربى ، أو لا  
أرتجف حينما ينبلع وجه الصباح . أما النوم فلم يعد يخفى  
عن نفسى . إننى حينما أرى صغار الماعز والخراف يطارد  
بعضها بعضاً أتصور أننى سأكون سعيداً لو أن لى شيئاً أهدف  
إليه ، ولكن لأننى أحصل على كل ما يمكن أن أحتاج إليه  
أجد الأيام والساعات متشابهة تماماً ، إلا أن الأيام والساعات  
الأخيرة أشد إملالاً من الأولى . دع تجاربك تنبئنى كيف



يمكن أن يبدو اليوم الآن قصيراً كما كنت أتصوره في طفولتي  
وقت أن كانت الطبيعة ترفل في ثوب قشيب ، وحين كانت  
كل لحظة ترينى ما لم ألاحظه مطلقاً من قبل : لقد تمتعت  
أكثر من اللازم فهات لى شيئاً أفقده .

دهش الشيخ لهذا النوع الجديد من الهم ، ولم يدر بماذا  
يجيب ، ومع ذلك لم يرضه السكوت ، فقال : « سيدى !  
لو رأيت ألوان البؤس في العالم لقدرت حالتك الراهنة خير  
تقدير » . فأجاب الأمير : « الآن قد أعطيتنى شيئاً أنشده .  
سأتطلع بلهفة إلى أن أرى ألوان البؤس في العالم ما دامت  
رويتها ضرورية للشعور بالسعادة » .



## الفصل الرابع

### الأمير يستمر في حزنه وتأمله

وهنا أعلن صوت الموسيقى حلول وقت الطعام ،  
فاختتمت المحادثة ، وذهب الشيخ غير راض مطلقاً ،  
وذلك لأنه وجد أن حججه قد انتهت إلى الخاتمة الوحيدة التي  
أراد أن يتحاشاها ، ولكن عند أفول نجم الحياة لا يبقى الحجل  
ولا الحزن طويلاً إما لأننا نحتمل بسهولة ما اعتدنا أن نحتمله ،  
وإما لأننا أقل اعتباراً للآخرين حينما نجد أنفسنا في الشيخوخة  
معتبرين أقل ، وإما لأننا لا نعبأ كثيراً بالهموم التي نعلم أن  
يد الموت على وشك أن تضع حداً لها .

ولم يستطع الأمير الذي امتدت نظراته إلى أفق أوسع أن  
يسرع في تسكين انفعالاته ، فقد كان يخشى من قبل طول  
الحياة التي وعدته الطبيعة بها لأنه ظن أنه في الزمن الطويل  
لا بد أن يحتمل الكثير . أما الآن فإنه ابتهج بشبابه لأن الكثير  
يمكن أن يتم في السنوات العديدة .

هذا الشعاع الأول من الأمل — الذي شق طريقه إلى

عقله — أعاد نضرة الشباب إلى خديه ، وضاعف بريق عينيه ، فكان يشتعل رغبة لعمل أى شىء ، مع أنه لم تتضح أمامه بعد الغاية والوسيلة .

فلم يعد الآن مكتئباً ، ولا مجتنباً حياة الجماعة ، بل تظاهر بانشغاله بجميع الخطط الخاصة بالترفيه والتسلية ، وحاول أن يجعل الآخرين مسرورين بالحالة التى كان هو نفسه يشكو منها ، وذلك لأنه كان يعتبر نفسه مالكاً لرصيد سرى من السعادة يتمتع به فقط حينما يخفيه عن الغير . ومهما كثرت المسرات واستمرت لا يمكن أن تشغل جميع فراغ الحياة . فكانت هناك ساعات كثيرة بالليل والنهار يقضيها فى تفكير منعزل بعيد عن ملاحظة الآخرين . فخف عنه عبء الحياة كثيراً ، وذهب برغبة صادقة إلى المجتمعات لأنه ظن أن كثرة حضوره ضرورية لتحقيق أغراضه ، ثم أوى مسروراً إلى مخدعه الخاص لأنه قد عثر وقتئذ على مادة للتفكير .

وكانت تسليته الرئيسية أن يصور لنفسه العالم الذى لم يره أبداً ، ويضع نفسه فى حالات متباينة ، ويقحمها فى مشاكل خيالية ، وينشغل فى مخاطرات بمناطق موحشة ، غير أن ميله للخير أنهى دائماً مشروعاته بخلاص من ضائقة ، وكشف للحديعة ، وهزيمة لظلم ، ونشر لسعادة .

على هذا النحو قضى راسلاس عشرين شهراً من حياته ،  
وشغل نفسه إلى مدى بعيد بمشاغل خيالية حتى إنه نسى  
عزله الحقيقية ، وفاته - أثناء استعداده المستمر للمواقف  
المختلفة في حياة المجتمعات الإنسانية - أن يفكر في الوسيلة  
التي يندمج بها مع الناس .

وبينما كان جالساً ذات يوم على ضفة الجدول صور لنفسه  
عذراء يتيمة سلبها محب خائن نصيبها الضئيل وهي تتبعه صائحة  
ليرد لها ما سلب ويعوضها عنه . وانطبعت هذه الصورة في  
ذهنه بدرجة من القوة جعلته يخف لحماية الفتاة . فجرى إلى  
الأمام ليقبض على السالب بكل ما تتطلبه المطاردة الحقيقية من  
الجد في طلبه ، والخوف بالطبع يجعل هروب المذنب أسرع ،  
لذلك لم يستطع راسلاس بكل ما بذل من مجهود أن يلحق  
بالحارب ، ولكنّه قرر أن يجهد بالصبر والمثابرة من لم  
يستطع التغلب عليه في السرعة ، فاستمر في سرعته حتى أوقف  
جريه سفح الجبل .

وهنا تذكر نفسه فابتسم لسرعة انفعاله من غير جدوى ،

ثم رفع عينيه إلى الجبل وقال : « هذا هو العقبة الكأداء  
التي تحول دون التمتع بالسرّات وتحقيق ما تقتضيه الفضيلة

فى الوقت نفسه . كم مرة طارت آمالى ورغباى خلف حدود  
حياتى هذه التى لم أحاول قط التغلب عليها ؟ » .  
وجلس يتأمل تحت تأثير هذه الفكرة ، وتذكر أنه منذ  
قرر أن يهرب من أسرهِ مرت الشمس فوقه مرتين فى دورتها  
السنتوية (١) ، وشعر بدرجة من الأسف لم يعهدها أبداً من  
قبل ، وفكر فى الكثير الذى كان من الممكن أن ينجز فى  
الوقت الذى انقضى ولم يخلف شيئاً حقيقياً وراءه . ثم وازن بين  
العشرين شهراً وعمر الإنسان فقال : « لا ينبغي أن يعد من  
الحياة الطفولة الجاهلة ولا الشيخوخة البلهاء ، فنحن موجودون  
قبل أن نستطيع التفكير بزمان طويل ، وسرعان ما تنفصل عنا  
القدرة على النشاط . ومن المعقول أن يعد العصر الحقيقى  
للوجود الإنسانى أربعين عاماً ، أضعت منها فى التأمل الجزء  
الرابع والعشرين . أما ما فقدته فقد كان مؤكداً لأننى  
كنت قد حصلت عليه ، ولكن من يضمن لى أن أحيى العشرين  
شهراً القادمة ؟ » .

ووخزه شعوره بحاقته وخزاً عميقاً ، ولم يستطع الرضا عن  
نفسه إلا بعد زمن طويل . ثم قال : « لقد أضاعت جنابة  
أسلافى أو حماقتهم وتقاليدهم وطنى غير المعقولة بقية وقى . إننى  
أشتمز لذكراها ، ومع ذلك لا أندم عليها لأننى لا أتحمل تبعتها ،

---

(١) هذا حسب الفلك البطلىسى - المترجمان .

غير أن الشهور التي انقضت منذ شق الضوء الجديد طريقه إلى  
نفسى ومنذ كونت خطة للسروور المعقول قد أضعتها بخطئى  
أنا . لقد فقدت ذلك الذى لا يعوض أبداً . كنت أرى  
الشمس تشرق ثم تغرب عشرين شهراً وأنا أنظر إلى ضوء  
السماء نظرة الحامل . حينئذ تركت الطيور عش أمها ،  
ولاذت بالغابات والسموات ، وهجر صغار الماعز الثدي  
وتعلمت تدريجاً كيف تتسلق الصخور فى طلب زاد مستقل .  
ولم أتقدم أنا ، بل لا أزال جاهلاً لا حول لى ولا قوة . وقد  
اتعظت بأكثر من عشرين تغييراً للقمر عن مد الحياة وجزرها .  
وعاب على الجدول الذى ينساب أمام قدمى خمولى فجلست غارقاً  
فى ولائم من الترف العقلى غير معتبر بكل من دروس الأرض  
وتعليمات الكواكب . لقد ولت عشرون شهراً فمن يعيدها إلى؟»

واستبدت بعقله هذه التأملات المليئة بالندم ، وقضى  
أربعة أشهر أخرى يقرر فيها ألا يضيع أى زمن آخر فى  
قرارات خاملة ، وأيقظه بعنف سماع فتاة تقول وقد كسرت  
فنجاناً من الخزف : « ما لا يمكن إصلاحه لا ينبغي الندم  
عليه » .

لقد كان هذا واضحاً ، لذا عنف راسلاى نفسه  
على أنه لم يكشفه ، وعلى أنه لم يعرف أو لم يفكر فى أن كثيراً

من الحكم المفيدة نحصل عليه بالمصادفة ، وكيف أنه يغلب.  
أن العقل — حينما تسرع به الحماسة إلى الآراء البعيدة — يهمل  
الحقائق الساذجة المبسوطة أمامه . فندم قليلا من الساعات  
لندمه ، ومن ذلك الوقت حصر كل قواه العقلية في وسيلة  
الهرب من الوادى السعيد .



## الفصل الخامس

### الأمير يفكر في هربه

لقد وجد الآن أن ما ظنه سهل التنفيذ إلى حدٍّ كبير من العسير أن ينفذ ، وذلك حينما نظر حوله ورأى نفسه محصوراً بين حصون الطبيعة التي لم يتغلب عليها بعد ، وبين الرتاج الذي ما اجتازه أحد مرة واستطاع العودة منه . لقد نفذ صبره في ذلك الوقت فكان كنسر في قفص ، وقضى الأسابيع في تسلق الجبال عله يرى منفذاً أخفته الشجيرات ، غير أنه وجد أنه لا يستطيع الوصول إلى أية قمة من القمم لإمعانها في الارتفاع . كما أنه يئس من فتح الرتاج الحديدى لأنه لم يكن محصناً بكل ما تملك الصنعة من قوة فقط بل كان كذلك تحت مراقبة مستمرة من حراس متتابعين ، كما كان يحكم موقعه عرضة للملاحظة دائمة من جميع السكان .

ثم فحص الغار الذى تتدفق خلاله مياه البحيرة ، وبعد أن نظر فترة إلى أسفل ، وقد سطعت الشمس عل



فتحتة ، وجده مملوءاً بقطع من الصخور التي سمحت للمياه أن تنصب خلال ممرات كثيرة ضيقة ، وإن كانت لا تسمح بمرور جسم صلب . فعاد كاسف البال ، شبه يائس ، ولكنه بعد أن عرف وقتئذ نعمة الأمل قرر ألا ييأس أبداً .

قضى في هذه البحوث غير المثمرة عشرة شهور ، غير أنها مرت في بهجة وانشراح ، فكان ينهض في الصباح بأمل جديد ، وفي المساء يطرى جهوده ، وينام بالليل نوماً عميقاً هادئاً بعد أن أضناه التعب . لقد صادف آلافاً من أنواع التسلية صرفته عن عمله ، ونوعت أفكاره ، فتبين الغرائز المختلفة للحيوان ، كما وقف على خواص النبات ، ووجد المكان مليئاً بالعجائب التي عزم أن يسرى عن نفسه بإنعام النظر إليها ، وذلك في حالة ما إذا استحال عليه الهرب . وابتهج لأن جهوده — وإن كانت لا تعتبر ناجحة إلى ذلك الوقت — قد أمدته بمصدر لبحوث لا ينضب معينه .

ولكن حب استطلاعهِ الأصلي لم ينته بعد فقرر أن يحصل على طائفة من الحقائق عن سلوك الناس ، واستمرت رغبته هذه ، ولكن أمله ضعف فلم يعد يفحص جدران

سجنه ، وأقل البحث بجهود جديدة عن منافذ تحقق أنه  
لا يمكن أن تكون موجودة . ومع ذلك صمم أن يضع خطته  
دائماً نصب عينيه ، ويتعلق بكل وسيلة صالحة يمكن أن  
يجود بها الزمن .



## الفصل السادس

### بحث في فن الطيران

وكان بين الصناع الذين اجتذبوا إلى الوادى السعيد لإراحة سكانه وإسعادهم رجل اشتهر بحذقه معرفة القوى الميكانيكية ، وابتكاره عدداً كبيراً من الآلات النافعة المسلية . لقد دفع الماء إلى قلعة بواسطة ساقية تحرك بقوة التيار المائى ، ومن القلعة وزع الماء إلى جميع أقسام القصر . وقد أقام سقيفة فى الحديقة ، وجعل الماء حولها دائماً رطباً بواسطة رذاذ اصطناعى . وكانت إحدى الخائل الخاصة بالسيدات تهوى بمراوح تحرك دائماً بقوة تدفق الجدول الذى يمر خلال الخميلة ، ووضع على مسافة مناسبة آلات للموسيقى الخاملة يدار بعضها بقوة دفع الرياح ، والبعض بقوة التيار المائى .

كان راسلاس يزور هذا الصانع أحياناً لأنه كان مشغولاً بكل نوع من أنواع المعرفة ، ومتصوراً أنه سيأتى الوقت الذى يستفيد فيه من كل معلوماته فى العالم الخارجى . وجاء يوماً ليسرى عن نفسه بأسلوبه المعتاد فوجد السيد مشغولاً بصنع عجلة شراعية ، ورأى أن الخطة عملية فوق سطح

مستو ، فرجا إتمامها بعد أن عبر له عن تقديره العظيم . سر الصانع بعظم تقدير الأمير له ، وقرر أن يعمل على أن يكون موضع تقدير أسمى ، وقال : « سيدى ! لم تر سوى جزء يسير مما تستطيع العلوم الآلية أن تحققه . لقد فكرت طويلا فى أن يستبدل الإنسان بوسائل النقل البطيئة من سفن وعجلات التنقل الأسرع بالأجنحة ، وأن حقول الفضاء مبسوطة لمن يريد أن يتعرف كنهها وأسرارها ، وأنه لا يحملنا على القناعة بالزحف فوق الأرض سوى الجهل والكسل » .

أشعلت هذه الإشارة رغبة الأمير مرة ثانية فى اجتياز الجبال . وبعد أن رأى ما أتمه صانع الآلات كان ميالا للاعتقاد أنه يستطيع أن يبدع خيرا من ذلك ، لكنه قرر أن يتعمق فى بحثه واستطلاعاه حتى لا يصدم بخيبة أمل إذا تبين أن هذا الصانع على خلاف ذلك . فقال للصانع : « إننى أخشى أن خيالك يتغلب على مهارتك ، وأنتك تجربنى الآن بما ترغب لا بما تعرف ، فكل حيوان له عنصره الخاص به : فالطير له الهواء ، والإنسان ، مع غيره من أنواع الحيوان ، له الأرض » . فأجاب صانع الآلات : « إن الأسماء ميدانها الماء ومع ذلك تستطيع العجاوات أن تستحم فيه بالسليقة والناس بالاكتساب والتعلم . ومن استطاع العوم لا ينبغي أن ييأس من الطيران ، فإلى العوم سوى طيران فى

سائل أشد كثافة ، وما الطيران غير عوم فى مادة أخف كثافة . وكل ما نحتاج إليه هو أن نوازن بين قدرتنا على المقاومة والأنواع المختلفة لكثافة المادة التى نخترقها . وسيصعد بك الهواء حتماً إلى أعلى متى استطعت أن تجدد أى دفع فيه قبل عودته بسبب الضغط » .

قال الأمير : « لكن رياضة العوم مجهدة جداً ، وأقوى الأعضاء تجهد بسرعة ، وأخشى أن يكون الطيران أشد إجهاداً ، فلا تصبح الأجنحة ذات فائدة عظيمة ما لم نستطع أن نظير أبعد مما نستطيع أن نعوم » .

قال الصانع : « إن المجهود العظيم يكون فى بدء الارتفاع من الأرض كما نراه فى الطيور المنزلية ذات الوزن الثقيل ، لكن كلما صعدنا قلت تدريجاً جاذبية الأرض وثقل الجسم حتى نصل إلى منطقة يطفو فيها الإنسان فى الهواء غير أن يخشى السقوط ، ولا يطلب منه بذل أى مجهود سوى أن يتحرك إلى الأمام ، وأخف دفع كفيف بتحقيق هذه الغاية . وأنت يا سيدى - يا من بلغ حب استطلاع شأواً بعيداً - تدرك بسهولة إلى أى حد من السعادة يصبح فيلسوف مزود بالأجنحة ومخلق فى السماء حينما يرى الأرض وجميع سكانها يموجون تحته ويعرضون عليه متتابعين - حسب حركة الأرض اليومية - جميع الممالك الواقعة فى نفس المدار الذى

يخلق فوقه . وكيف تكون تسليية الناظر المعلق في الهواء عندما يرى المنظر المتحرك للأرض والمحيط والمدن والصحارى ، ويلقى نظرة شاملة ، وهو آمن مطمئن ، إلى أسواق التجارة ، وميادين الحرب ، والجبال يغزوها البرابرة ، والمناطق المثمرة مغتبطة بغزارة الخيرات ، وسعيدة بالسلام . ما أسهل عندئذ أن نتبع النيل من منبعه إلى مصبه ، ونخلق فوق المناطق النائية ، ونختبر سطح الطبيعة من أدنى الأرض إلى أقصاها . »

قال الأمير : « كل هذا حقيق بأن يرغب فيه ، ولكننى أخشى ألا يستطيع إنسان أن يتنفس في مناطق التأمل والسكون هذه . لقد بلغنى أن التنفس صعب فوق شواهد الجبال ، فضلاً عن أنه من السهل جداً أن تسقط من هذه المهاوى على الرغم من أنها عالية إلى درجة تجعل الهواء أخف كثافة إلى حد كبير . ولهذا أخشى أن يكون خطر الهبوط المفاجئ متوقفاً من أى ارتفاع يستطيع الإنسان أن يعيش فيه . »

أجاب الصانع : « لو تحتم على الإنسان أن يقدم في تفكيره جميع العقبات المحتملة وكيفية التغلب عليها ما حاول أحد شيئاً مطلقاً . فإذا عضدت مشروعي حاولت الطيران الأول على مسئوليتي الخاصة . لقد فكرت في تكوين جميع أنواع الحيوان الطائر ، ووجدت أن أجنحة الخفاش أنسب

الأجنحة لشكل الإنسان لما فيها من طيات متصلة . فعلى هذا المثال سأبدأ عملي غداً ، وأتوقع في مدى سنة أن أحلق في الجو بعيداً عن حقد الإنسان ومطارده . غير أنني سأعمل على شريطة ألا يكشف سر هذا الفن ، وأنتك لن تطلب مني أن أصنع أجنحة لغيرنا من الناس » .

قال راسلاس : « لماذا تريد أن تضمن على الآخرين بمثل هذه الميزة العظيمة ؟ ينبغي أن تستغل جميع الكفايات في سبيل المصلحة العامة ، وكل إنسان مدين بالكثير لغيره من الناس ، ويلزمه أن يرد لهم ما أولوه من عطف » .

فرد الصانع : « لو كان كل الرجال فضلاء لبادرت إلى تعليمهم كيف يطربون ، ولكن أى شيء يحمى الخيرين لو طاب للأشرار أن يغزوهم من السماء ؟ حينئذ لن تستطيع الحصون ولا الجبال ولا البحار أن تحمى أحداً من جيش يسبح بين السحب . وقد يخلق المتوحشون الشماليون في الجو ، ثم يهبطون بعنف لا يقاوم على حاضرة منطقة مشمرة تموج تحتهم ، وحتى هذا الوادى ، موطن الأمراء ومقر السعادة ، قد يصاب بهبوط مفاجئ لبعض الشعوب العراة الذين ينتشرون على ساحل البحر الجنوبي » .

وعد الأمير بكمآن الأمر ، وانتظر التنفيذ غير فاقد الأمل كله في النجاح ، وتردد على العمل من حين لآخر ،

ولاحظ سيره وتقدمه ، وشاهد الكثير من التدبيرات الفنية  
الماهرة لتيسير الحركة ووصل خفة الوزن بالقوة . وكان  
الصانع يزداد ثقة على مر الأيام في أنه سيخلف وراءه البزاة  
والنسور ، وقد تمكنت عدوى ثقته من الأمير .  
أعدت الأجنحة في مدى سنة ، وظهر الصانع ذات  
صباح معين مستعداً للطيران من ربوة صغيرة . فحرك جناحيه  
فترة ليستجمع الهواء ، ثم قفز من موقفه ؛ وسرعان ما هوى  
في البحيرة . والجناحان اللذان لم يسعفانه في الهواء حملاه  
في الماء . فجذبه الأمير نصف ميت من الرعب والهـم





## الفصل السابع

### الأمير يجد عالماً من العلماء

لم يتأثر الأمير تأثراً كبيراً نتيجة لهذه النكبة لأنه قد منى نفسه بحظاً أسعد ، إذ لم تكن أمامه وسيلة أخرى للهروب من المأزق سوى هذه . ولم يزل مصمماً على أن يغادر الوادى السعيد فى أول فرصة تسنح له .

وصدى ذهنه ، وأصبح فاقد الأمل فى الوصول إلى العالم ، واقتصر السخط تدريجاً رغم كل محاولاته لرفع روحه المعنوية ، وعادت أفكاره تغوص فى خضم من الهم لأن الأمطار - وهى موسمية فى تلك البلاد - حالت بينه وبين التجول فى الغابات .

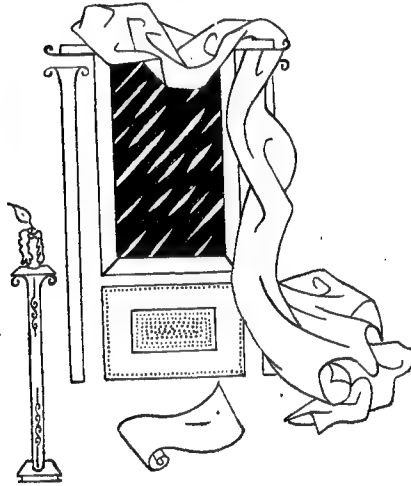
فاستمرت الأمطار بغزارة وعنف لم يعهدا من قبل ، وتقطعت السحب فوق الجبال المحيطة ، وانحدرت المياه المتدفقة إلى السهل من كل جانب حتى بلغ الغار حداً من الضيق لم يسمح بمرور المياه منه ، وفاضت البحيرة وغمرت الشواطئ ، وأصبح سطح السهل كله مغطى بالسيول.

الجارقة ، وصار كل ما تستطيع العين أن تبينه من معالم هو الربوّة التي أقيم عليها القصر وبعض المرتفعات الأخرى . وهجرت القطعان المراعى ، واعتصمت الأنواع المختلفة من الحيوان المفترس وغيره بالجبال .

وقصرت السيول تسليّة الأمراء على اللهو المنزلى ، واستولت على مشاعر الأمير بصفة خاصة القصيدة التي كان قد أنشدها شاعر يدعى « إملاك » في حالات الإنسان المختلفة . فاستدعى الشاعر للحضور إلى مخدعه لكي ينشده شعره مرة ثانية . وبعد أن أفاض معه في الحديث أسعده أن يعثر على الرجل الذى يعرف الحياة حق المعرفة ، ويستطيع أن يصور مشاهدتها خير تصوير . فسأل آلافاً من الأسئلة عن أمور تعتبر عادية بالنسبة لجميع الناس إلا أنه قد حرم معرفتها بسبب حبسه فى القصر ، وأشفق الشاعر عليه لجهله غير أنه شجعه على بحثه وزوده كل يوم بالطريف من المعلومات ، ولهذا أسف الأمير على الوقت الذى لا بد أن يقضيه فى النوم ، وتطلع إلى الصباح حتى يتجدد سروره .

وبينما كانا جالسين معاً طالب الأمير « إملاك » أن

يقص عليه تاريخه ، ويخبره بالدافع الذى حمله على أن  
يختم حياته فى الوادى السعيد . وما كاد يستعد لقص  
تاريخه حتى استدعى راسلاس إلى حفل موسيقى ،  
فاضطر إلى أن يكبت استطلاعه حتى المساء .



## الفصل الثامن

### حياة إمالك

كانت نهاية اليوم في المنطقة الاستوائية هي الوقت الوحيد للهو والتسلية ، ولهذا كان ينتصف الليل قبل أن تكف الموسيقى عن العزف وقبل أن تأوى الأميرات إلى مضاجعهن . ثم دعا راسلاس رفيقه وطلب منه أن يبدأ قصة حياته .

قال إمالك : « سيدى ! إن تاريخي لن يكون طويلاً لأن الحياة التي لا تعرف سوى العلم والعرفان تنقضى بهدوء ، وقلمنا تتنوع بالحوادث ، إذ وظيفة العالم أن يخطب الجماهير ، وأن يفكر في خلوة ، وأن يقرأ ويسمع ، وأن يسأل ويجيب على الأسئلة . إنه يتنقل حول العالم من غير تظاهر أو إرهاب ، ولا يعرفه ويقدره سوى نظرائه من العلماء .

لقد ولدت في مملكة « جوياما » التي لا تبعد كثيراً عن منبع النيل . وكان والدي تاجراً ثرياً يتنقل بتجارته بين الممالك الإفريقية الداخلية وسواحل البحر الأحمر . وكان أميناً ومقتصداً ومجداً ، غير أنه كان جامد العاطفة ضيق الأفق .

« وكان همه الوحيد ان يكون غنياً وأن يسدل على ثروته الستار حتى لا يسطو عليه حاكم المقاطعة » .

قال الأمير : « حقاً لا بد أن يكون أبى مهماً في رعاية ما هو مسئول عنه حين يجرؤ إنسان على أن يغتصب ما يملك الآخرون . لو كنت ملكاً ما أصاب أحداً من أحقر رعاياى اضطهاد دون أن ينال المضطهد ما يستحق من العقاب . إن دى ليغلى حينما أعلم أن تاجراً لا يستطيع أن يتمتع بثمره جهوده المشروعة خشية أن يفقدها نتيجة لجشع الأقوياء . اذكر لى اسم الحاكم الذى سلب الناس ممتلكاتهم حتى أفضح جرائمه للملك » .

قال إملاك : « سيدى ! إن حماسك نتيجة طبيعية لفضيلة فيك يحبها شبابك ، وسيأتى الوقت الذى تعذر فيه أباك حينما تخلفه ، وتكون أقل جزءاً لسماعك بأمر الحاكم . والظلم فى الممتلكات الحبشية لاهو كثير الوقوع ولا هو مباح . على أنه لم يكشف للآن أى شكل من أشكال الحكومة يمكن أن تمنع فيه القسوة منعاً باتاً . وإن « نظام التبعية » يفترض قوة فى ناحية وخضوعاً فى ناحية أخرى . وقد يساء استعمال القوة إذا أصبحت فى أيدى الناس . وإن يقظة قاضى القضاة تستطيع أن تعالج الكثير من هذه الحال ، غير أن الكثير سيبقى مع

ذلك في حاجة إلى العلاج ، فإنه لن يستطيع أن يلزم بجميع الجرائم التي ترتكب ، وكلما يستطيع أن يعاقب على ما يعرفه منها » .

قال الأمير : « إنني لا أفهم هذا ، ولكنني أفضل أن أستمع إليك على أن أجادلك . فعد إلى حديثك » .

فاستأنف إملاك قائلاً : « لقد عزم والدي أول الأمر على ألا أتناول من التربية إلا بمقدار ما يؤهلني لحرفة التجارة . وبعد أن تبين في قوة ذاكرة عظيمة وسرعة بديهة كان عظيم الأمل في أن أصبح يوماً ما أغني رجل في الحبشة » .

قال الأمير : « لماذا يرغب والدك أن يزيد من ثروته إذا كانت قد بلغت حداً أعظم مما يستطيع إعلانه والتمتع بثمرته ؟ أنا لا أريد أن أشك في صدق كلامك ، ولكن النقيضين لا يمكن أن يكون كل منهما صحيحاً » .

فأجاب إملاك : « لا يمكن أن يكون كلا النقيضين صحيحاً إلا بالنسبة للإنسان فإنه من المستطاع أن يكونا كذلك ، ومع ذلك لا يعتبر التنوع تناقضاً فقد يكون من المحتمل أن والذي كان يتوقع عهداً أعظم طمأنينة . ومهما تكن الظروف فإنه من الضروري أن يوجد بعض الرغبات لتستمر الحياة

في حركتها . ومن قضيت حاجاته الحقيقية تطلع إلى مايتخيله  
من حاجات » .

قال الأمير : « إننى أدرك هذا إلى حد ما ، وإننى  
اعتذر عن مقاطعتك » .

فاستأنف إملاك كلامه قائلاً : « بهذا أأمل أرسلنى والدى  
إلى المدرسة ، ولكن بمجرد أن وجدت بهجة المعرفة وشعرت  
بلذة الفهم والكبرياء المنبعثة عن التخيل بدأت فى سكون  
ازدري الثراء ، وصممت على أن أخيب أمل والدى ، وقد  
أثار تفكيره اللفظ عطفى وإشفاقى . وكنت قد بلغت من العمر  
عشرين عاماً قبل أن يعرضنى والدى لمشقة الترحال ، وكان  
يتناوب فى ذلك الوقت على تعليمى فروع آدابى الوطنية جميعها  
أساتذة متتابعون . ولما كانت كل ساعة تمر تزودنى بطريف  
عشت فى جو من الرضا والقناعة ، ولكن حينما تقدمت بى  
السن فقدت الكثير من التبجيل الذى اعتدته لأساتذتى لأننى  
لم أجدهم بعد انتهاء الدرس خيراً من عامة الناس أو أحكم منهم .  
» عندئذ قرر والدى أن يعدنى لحرفة التجارة . وبعد أن  
فتح أحد كنوزه المحفوظة تحت الأرض عد منه عشرة آلاف  
من القطع الذهبية قائلاً : ( أيها الشاب ! هذا هو رصيدك  
الذى يجب أن تتعامل به . لقد بدأت أنا بأقل من خمس هذا

المقدار، وتستطيع أن ترى كيف أن الجد والادخار قد نياه .  
هذا نصيبك ، ولك أن تضعه أو تنميه . فإن أضعته فعليك  
أن تنتظر موتى حتى تصبح ثرياً ، وإن ضاعفت رصيدك فى  
مدى أربع سنوات لم تصبح تابعاً لى وخاضعاً لأوامرى ، بل  
عشنا معاً صديقين وزميلين ، لأن من يعادلنى فى فن تنمية  
الثروة خلىق به أن يكون دائماً نظيراً لى .

« وضعنا النقود على الجمال مستورة فى أكياس البضائع  
الزهيدة الثمن ، ورحلنا إلى شاطئ البحر الأحمر ، وحينما  
وقع نظرى على صفحة الماء المترامية الأطراف اعترى قلبى  
ما يعترى قلب السجين الهارب من الغبطة بالخلاص والحرية ،  
وشعرت بلهيب من حب الاستطلاع لا يطفأ يندلع فى نفسى  
فقررت أن أغتني هذه الفرصة لأرى أخلاق الشعوب الأخرى  
ومشاربهم ، وأتعلم علوماً لم تعرف فى بلاد الحبشة .

« وتذكرت أن والدى كان قد ألزمنى بأن أنمى  
رصيدى لابعهد ينبغى ألا أخونه ، بل بعقوبة ترك لى الخيار  
فى تحملها ، ولهذا صممت على أن أشبع الرغبة التى تسيطر  
على ، وأن أطفىء ظمئى إلى الاستطلاع بالنهل من معين المعرفة .

« ولما كان المفروض أن أزاوول التجارة مستقلاً عن أبى  
كان من اليسير على أن أتعرف على ربان سفينة ، وأن



أحصل على إذن برحلة إلى بعض الممالك الأخرى . ولم يكن  
لدى أى دافع لتنظيم رحلتى ، بل كان كل ما يهمنى أن أرى  
بلاداً لم أرها من قبل . ولهذا صعدت إلى سفينة تقصد (سورات)  
بعد أن تركت رسالة لأبى أنبثه فيها بعزمى .



## الفصل التاسع

### حياة إملاك أيضاً

« وحينما دخلت عالم المياه لأول مرة ، وتوارى البر خلف الأفق نظرت حولي برهبة تمتاز بسرور . وبعد أن فكرت في أن نفسي قد اتسع أفقها بالمنظر الذي لا حد له تخيلت أنني أستطيع أن أستمع في النظر حولي إلى الأبد من غير سآمة أو ضجر ، غير أنني شعرت بعد زمن قصير بالملل من إطالة النظر إلى أشياء مماثلة الشكل ، إذ لم أستطع أن أرى ثانية سوى ما كنت قد رأيته من قبل . ثم نزلت إلى داخل السفينة وساورني الشك في أن جميع مسراتي المستقبلية ستنتهي نفس النهاية بالضيق وخيبة الأمل . ومع ذلك قلت لنفسي إن المحيط والأرض مختلفان تماماً ، وكل ما في الماء من تنوع هو الراحة والحركة ، ولكن في الأرض جبال ووديان وصحارى ومدن ، ويسكنها أناس يختلفون في العادات ، ويتضاربون في الآراء ، وآمل أن أجده التنوع في الحياة على الرغم من أنني افتقدته في الطبيعة .

« بهذه الفكرة سكنت عقلي ، وسريت عن نفسي أثناء الرحلة تارة بالتعلم من الملاحين فن الملاحة التي لم أزاوها من

قبل قط ، وتارة أخرى بتكوين خطط لسلوكى فى أوضاع مختلفة متخيلة لم أقف فى واحد منها أبداً من قبل .  
« وكدت أضيق بما مارسته فى البحر من تسليات لولا أن نزلنا إلى البر سالمين فى سورات . وحافظت على نقودى ، وبعد أن ابتعت بعض السلع للتعمية ألحقت نفسى بقافلة كانت وجهتها داخل البلاد . ولما كان رفاقى يتكهنون لسبب ما بأننى غنى ، وأننى — بسبب أسئلتى وإعجابى — جاهل بالبلاد اعتبرونى حديث عهد بها يحق لهم أن يخذعوه ، وأن علىّ أن أتعلم بالثمن المعتاد فى الغش والخداع . فعرضونى لسرقة الخدم ، واستغلال رجال الشرطة ، ورأونى غنيمة بالغش والتدليس من غير أن تكون لهم مصلحة فى ذلك سوى أن يتهجوا بتفوقهم على فى المعرفة » .

قال الأمير : « على رسلك ، هل بلغت النقيصة بالإنسان إلى حد أنه يضر بالآخرين من غير أن يستفيد هو نفسه من ذلك شيئاً ؟ إننى أستطيع أن أفهم بسهولة أن الجميع مغتبطون لتفوقهم ، غير أن جهلك بالبلاد كان عرضياً فقط . ولما لم يكن هذا الجهل جريمة ارتكبتها ، ولا حاقة انصفت بها لا يمكن أن يصلح سبباً لإطراء أنفسهم . وكان من المستطاع أن يظهروا المعرفة التى تعوزك ويتمتعون بها بطريقة أكثر تأثيراً ، وهى تحذيرك من الخيانة بدلا من أن يخونوك » .

قال إملأك : « قلما تجتمع الكبرياء والركة ، وإن الكبرياء تسعد نفسها بمزايا غاية في الوضاعة ، والحسدة لا يشعرون بسعادتهم إلا إذا قوبلت ببؤس الآخرين . وإن رفاقي ناصبوني العداة لأنه أحزنهم أن يظنوني غنياً ، واضطهدوني لأنه أبهجهم أن يجدوني ضعيفاً » .

قال الأمير : « عد إلى كلامك . إننى لا أرتاب في الحقائق التى تقصها ، غير أننى أتخيل أنك تنسبها لبواعث خاطئة » .

قال إملأك : « بلغت بين هؤلاء الرفاق ( أجرا ) قاعدة ( هندوستان ) ، وهى التى يقيم فيها عظيم المغول ، وبدأت أتعلم لغة البلاد ، وأصبحت بعد أشهر قليلة قادراً على أن أتحدث مع العلماء ، وكان بعضهم مكتئباً ومتحفظاً ، والبعض من السهل التفاهم معه والاتصال به ، والبعض غير راغب أن يعلم أحداً ما عانى فى تعلمه الأمرين ، وكان يرى البعض أن الغاية من دراستهم هى أن يحصل على درجة من الوقار والتبجيل يتمتع بها المعلم .

« فزكيت نفسى لدى معلم الأمراء الصغار إلى حد سمح لى بالمشول بين يدى الملك بوصفى عالماً من فطاحل العلماء . فسألنى الملك بضعة أسئلة خاصة بوطنى ورحلتى . ومع أننى لا أستطيع أن أذكر الآن أى شىء تفوه به مما هو فوق

مقدور العامة من الناس إلا أنني انصرفت من حضرته مذهولاً  
لحكيمته ومسحوراً بطيب نفسه .

« وسمت الثقة بي في ذلك الوقت إلى درجة أن التجار  
الذين رافقوني في الرحلة سألوني أن أزيهم لدى سيدات  
القصر ، ودهشت لثقتهم في سرعة إجابة مطلبهم ، وأنبتهم  
برفق على سوء صنيعهم في الطريق ، فلم يكثرثوا لتأنيبي ،  
وما أعاروه اهتماماً ، ولم تبد عليهم أية علامة للخجل  
أو الأسف .

« ثم حثوني على إجابة مطلبهم مقدمين لي رشوة ، ولكن  
الذي لا أرغب في أدائه عطفاً ورحمة لا أؤديه طمعاً في  
المال . فرفضت طلبهم لأنهم آذوني ، ولكن لأنني لا أود  
أن أمكنهم من إيذاء الآخرين . فقد علمت أنهم سيستغلون  
الثقة بي في غش هؤلاء الذين يبتاعون سلعهم .

« وبعد أن أقيمت (بأجراً) ، وتعلمت فيها كل شيء  
حتى لم يبق فيها من مزيد للتعلم رحلت إلى (فارس) حيث  
شاهدت أنواعاً شتى من بقايا العظمة القديمة ، ورأيت الكثير  
من الوسائل الحديثة للراحة في الحياة . فالفرس أمة تميل  
بطبيعتها إلى الاجتماع ميلاً شديداً . وقد هيأت لي مجتمعاتهم  
كل يوم فرصاً لألاحظ فيها الأخلاق والعادات ، وأتتبع  
الطبيعة البشرية في جميع تطوراتها وتغيراتها .

« ومن فارس مررت إلى بلاد العرب . وهناك رأيت  
أمة من الرعاة المحاربين ، يعيشون حياة لا استقرار فيها ،  
وكل ما يملكونه من ثروة هو قطعانهم . وقد شنوا حروباً  
توارثوها على مر الزمن ضد الناس جميعاً ، مع أنهم لا يطعمون  
في بلادهم ، ولا يحسدونهم على ممتلكاتهم . »



## الفصل العاشر

### حياة إملاك أيضاً — بحث في الشعر

« وحيثما ذهبت وجدت الشعو يعتبر أعلى درجات المعرفة ، وينظر إليه باحترام يقرب مما يقدم الإنسان للطبيعة الملائكية ، ومع ذلك يملؤني عجباً أن أقدم الشعراء في جميع البلاد تقريباً يعدون أشعرهم ، إما لأن أنواع المعرفة الأخرى يحصل عليها تدريجاً بينما الشعر هبة تمنح دفعة واحدة ، وإما لأن بواكير الشعر قد أذهلت طرافتها الأمم فاحتفظ الشعر عن رضا وموافقة بما كان قد حازه أولاً من منزلة اتفاقاً ومصادفة ، وإما لأن أوائل الكتاب قد استحوذوا على أبرز الأشياء ليصفوها وعلى أكثر الوقائع احتمالاً ليجعلوا منها موضوعاً للرواية ، ولم يتركوا لمن خلفوهم سوى صور لمفردات هذه الوقائع • وتأليفات جديدة لنفس هذه الصور الخيالية ، وذلك لأن مجال الشعر أن يصف الطبيعة والوجدان ، وهما لا يتغيران أبداً . ومهما يكن السبب فإنه يقال عادة إن قدامى الكتاب استأثروا

بالطبيعة ، بينما استحوذ تابعوهم على الصنعة والفن ، وإن السلف يمتازون بالجزالة والابتكار ، والخلف بالبرقة والصقل .

« وكنت أرغب أن أضيف اسمى إلى هذه الرفقة الناهية فقرأت كل شعراء الفرس والعرب ، وكنت أستطيع أن أعيد عن ظهر قلب جميع ما سطر في الأسفار المعلقة في مسجد مكة ، ولكن سرعان ما تحققت أن الإنسان لا يمكن أن يكون عظيماً بالتقليد . فدفعتنى رغبتى في السبق إلى أن أحول انتباهى إلى الطبيعة وإلى الحياة . وكان من الواجب أن أتخذ لى من الطبيعة موضوعاً ، ومن الناس جمهوراً ، فإننى لم أستطع مطلقاً أن أصف ما لم أر ، كما أننى لم آمل فى إثارة هؤلاء الذين لم أفهم آراءهم ومصالحهم بالرغبة أو الرهبة .

« وبما أنى قررت الآن أن أصير شاعراً رأيت كل شىء يهدف جديد ، فاتسع مجال انتباهى فجأة ، ولم تخطىء ملاحظتى أى نوع من أنواع المعرفة ، وطويت الجبال والصحارى باحثاً عن صور وتشبيهات ، وطبعت فى عقلى كل شجرة فى الغابة ، وكل زهرة فى الوادى ، ولاحظت بعناية مماثلة جلاميد الصخور وأبراج القصور ، وسرت أحياناً ومنعطقات الجداول ، وراقبت آونة سحائب الصيف فى تغيرها ، إذ لا يمكن أن يخلو شىء من فائدة للشاعر ، فيجب أن يألف



خياله كل ما هو جميل أو مخيف ، كما يجب ألا يغيب عنه كل ما هو ملء بالرهبة وما هو ضئيل أنيق . فنباتات الحديقة وحيوان الغابة ومعادن الأرض وشهب السماء يجب أن تلتقى معاً لئلا ذهنه بمتنوعات لا حصر لها . إذ كل فكرة مفيدة في تأييد حقيقة دينية أو خلقية أو تزيينها وتحجيبها إلى النفوس . ومن عرف أكثر كان أقدر على تنويع صورته الشعرية ، وإشباع قارئه بتلميحاته الخفية وتعليقاته المفاجئة .

« لهذا كنت حريصاً على دراسة مظاهر الطبيعة جميعها . وكل بلاد جبتها أضافت جديداً إلى كفاياتي الشعرية » .

قال الأمير : « لا بد أن الكثير قد أفلت من ملاحظتك في مثل هذا المجال الواسع . لقد عشت حتى الآن في دائرة تحدّها هذه الجبال ، ومع ذلك لا أستطيع أن أتجول من غير أن أرى شيئاً لم أره أو لم أسمعه أبداً من قبل » .

قال إملاك : « إن وظيفة الشاعر أن يختبر النوع لا الفرد ، وأن يلاحظ الصفات العامة والمظاهر البارزة . فليس من شأنه أن يعد الخطوط الملونة لزهرة السوسن ، أو أن يصف الظلال المختلفة لخضرة الغابة ، بل همه أن يعرض في لوحاته للطبيعة أبرز الأجزاء وأظهرها حتى يمثل أصل الطبيعة لكل عقل ، وعليه أن يعرض عن الفوارق الدقيقة التي قد يلاحظها

البعض ويهملها البعض الآخر ، وذلك من أجل الخصائص التي تشابه وضوحاً في حالتى اليقظة والغفلة .

« لكن معرفة الطبيعة ليست سوى نصف وظيفة الشاعر . إذ يجب عليه بالإضافة إلى ذلك أن يلم بجميع أشكال الحياة . فطبيعته تتطلب أن يقدر السعادة والبؤس في كل حالة ، وأن يلاحظ ألوان الوجدان جميعها في كل تأليفاتها ، وأن يتتبع تغيرات العقل البشرى بأنواع التعليم والمؤثرات العرضية : المناخ أو العادات ، وذلك من عهد نشاط الطفولة وحيويتها إلى آخر مراحل الضعف والتدهور في عهد الشيخوخة . وعلى الشاعر أن يتنزه عن أهواء عصره ووطنه وأن يعتبر الصواب والخطأ في حالتها المجردة غير المتحولة ، وأن يقل اعتباره للقوانين والآراء المعاصرة ، وعليه أن يسمو إلى الحقائق العامة المجردة التي لا تتغير أبداً . وعليه — بناء على هذا — أن يقنع بالتقدم البطيء لاسمه وشهرته ، وألا يقيم وزناً لمديح عصره ، بل يترك الحكم له أو عليه لعدالة الأجيال القادمة بعده ، كما أن عليه أن يكون للطبيعة مترجماً ، وللنوع الإنساني مشرعاً ، رأن يعتبر نفسه موجهاً لأفكار الأجيال المستقبلية . وأساليبهم في الحياة وممتازاً امتيازاً غير عادى بالنسبة للزمن . والمكان اللذين ظهر فيهما .

« على أن عمل الشاعر لم يبلغ النهاية بعد إذ يلزمه أن يعرف لغات وعاماً، كما يلزمه — نتيجة للتدريب المستمر — أن يتذوق كل رقة في الكلام وروعة في الانسجام حتى يكون أسلوبه جديراً بأفكاره . »



## الفصل الحادي عشر

### قصة إملاك تستمر: لمحة في الحج

شعر إملاك بنوبة من الحماسة ، وعاد إلى تفخيمه لمهنته الخاصة ، فصاح الأمير قائلاً : « حسبك ، لقد أقنعتني بأن الإنسان لا يمكن أن يكون أبداً شاعراً ، فعد إلى قصتك ».

قال إملاك : « إنه لمن العسير أن يصبح الانسان شاعراً . فأجاب الأمير : « من العسير جداً إلى حد أنني لا أرغب في الوقت الحاضر أن أستمع إلى المزيد من جهود الشاعر . خبرني إلى أين ذهبت بعد أن رأيت فارس ؟ » .

قال الشاعر : « رحلت من فارس عن طريق الشام ، وأقمت في فلسطين ثلاث سنين حيث تحدثت إلى عدد عظيم من أمم أوروبا الشمالية والغربية ، هذه الأمم التي تسيطر الآن على جميع القوى والمعارف ، ولا تقاوم جحافلها ، وتهمن أساطيلها على أقصى أجزاء المعمورة . وحينما وازنت بين هؤلاء الناس وبين مواطني في مملكتنا وهؤلاء الذين يحيطون بنا ظهوروا لي كأنهم نوع آخر من الكائنات . فمن الصعب

أن يتمنى الإنسان شيئاً في بلادهم من غير أن يحصل عليه .  
وهناك ألف من الفنون والصناعات — التي لم نسمع بها قط —  
يعمل من غير انقطاع لراحتهم وإسعادهم . وما من شيء  
حرمهم منه مناخهم إلا أمدتهم به تجارتهم » .

قال الأمير : « كيف كان الأوروبيون أقوى منا إلى هذا  
الحد ؟ وإذا كانوا قد استطاعوا في سهولة ويسر أن يزوروا  
آسيا وأفريقيا للشجارة أو الغزو فلماذا لا يستطيع الآسيويون  
والأفريقيون أن يغزوا شواطئهم ويطبقوا المستعمرات  
في موانئهم ويفرضوا قوانينهم على أمرائهم الأصليين ، فالريح  
التي تعيدهم إلى بلادهم هي نفسها التي توصلنا إلى هناك » .

أجاب إملاك : « إنهم يسيّدون أقوى منا لأنهم أحكم ،  
والمعرفة تغلب دائماً على الجهل ، كما يحكم الإنسان بعقله  
وتتميزه الأنواع الأخرى من الحيوان ، غير أنني لا أعرف  
سبباً لتفوقهم علينا في المعرفة إلا أن يكون ذلك مشيئة الله الذي  
لاراد لمشيئته » .

قال الأمير متأوها : « متى أستطيع أن أزور فلسطين  
وأندمج في هذا المجتمع القوي من الأمم ؟ دعني أملأ الوقت  
بمثل هذه الصور التي تعطينيها حتى تحين هذه اللحظة السعيدة .  
إنني لا أجهل السر في اجتماع مثل هذا العدد العديد في ذلك

المكان ، ولا بد من أن أعتبره مركز الحكمة والتقوى الذى يجب أن يؤمه دائماً أصحاب الناس وأحكامهم من كل طرف .

قال إملاك : « من الأمم من يرسل القليل من الزوار إلى فلسطين لأن الكثير من المذاهب العلمية العديدة فى أوروبا تتفق فى صبغ الحج بصبغة الخرافة ، والنظر إليه باعتباره عملاً يدعو إلى السخرية والضحك » .

قال الأمير : « إنك تعلم أن حياتى لم توقفى على الآراء المتباينة إلا قليلاً جداً ، وسيقتضى استماعى إلى حجج الجانبين كليهما وقتاً طويلاً جداً ، وإذ كنت قد فكرت فيها أخبرنى بنتيجتها » .

قال إملاك : « الحج كغيره من أعمال الصلاح والتقوى قد يكون معقولا ، وقد يكون خرافيا حسب المبادئ التى يؤدى على مقتضاها . وليست الرحلات الطويلة طلباً للحقيقة مفروضة ، إذ الحقيقة الضرورية لتنظيم الحياة توجد دائماً حيث يبحث عنها بحثاً مخلصاً ، وليس تغيير المكان سبباً طبيعياً لزيادة التقوى والصلاح ، بل إنه لا بد أن يؤدى إلى تثبيت الفكر وارتبأكه . ولكن لما كان الناس يذهبون كل يوم ليمتعوا أنظارهم بالمبشرين التى كانت يوماً ما مسرحاً لأعمال عظيمة ، ويعودون بشعور أقوى نحو هذه الحادثة فن الطبيعى أن

يدفعنا نفس النوع من حب الاستطلاع إلى أن نمتع النظر ببلاد  
نبئت فيها ديانتنا . وإني لأعتقد أنه ما من إنسان تطلع إلى هذه  
المناظر المليئة بالرهبة والوقار إلا ازداد صلاحه ثباتاً وقوة .  
أما أن دعاء المولى سبحانه يستجاب في مكان دون آخر  
فليس إلا حلماء مع أحلام الذين امتلأت عقولهم بالخرافات  
الخالمة ، وأما أن بعض الأماكن يؤثر في عقولنا بطريقة  
غير عادية فذلك رأى تبرره التجارب دائماً . ومن ظن أن  
محاربة رذائله تنتهى في فلسطين بنجاح أعظم ربما وجد نفسه  
مخطئاً ، ومع ذلك لا يعتبر ذهابه إلى هناك حماقة . ومن  
حسب أن خطاياها تغفر فيها بصورة أعظم وأسرع خان كلاً  
من عقله ودينه » .

قال الأمير : « لقد اصطنع الأوروبيون هذه التفرقات ،  
وسأنعم النظر فيها وقتاً آخر . وأى أثر وجدت للمعرفة ،  
هل هذه الأمم بتفوقهم علينا فيها أسعد حالاً منا ؟ » .

قال الشاعر : « لقد بلغ البؤس في العالم حدّاً يندر معه  
أن يجد الإنسان الفراغ من همومه ليقدّر السعادة النسبية  
للآخرين . فالمعرفة من غير شك إحدى وسائل المتعة والسرور  
يوئيد ذلك الرغبة الطبيعية التي يشعر بها كل عقل لزيادة  
أفكاره . وليس الجهل سوى حرمان وعوز لا يمكن أن

ينتج شيئاً . إنه فراغ تقف فيه النفس جامدة ثقيلة الحركة لحاجتها إلى الجاذبية . ونحن دائماً نسر حيننا نتعلم ، ونحزن حيننا ننسى ، من غير أن نعرف سبباً لذلك . فأنا على هذا ميسال إلى أن أستنبط أنه كلما اتسع أفق عقولنا سعدنا أكثر ما لم يحدث شيء يتعارض مع نتيجة التعلم .

« وحينما نعد وسائل الراحة في الحياة نجد الأوربيين أكثر امتيازاً : فهم يشفون الجروح والأمراض التي تضنينا وتبيدنا ، ونحن نعاني صرامة الجو وهم يستطيعون التغلب عليها ، ولهم الآلات التي ينجزون بها الكثير من الأعمال الشاقة التي نؤديها بالصناعات اليدوية ، وهناك وسائل للمواصلات بين الأماكن المتباعدة حتى يندر أن يقال إن الصديق بعيد عن صديقه . وسياستهم تزيل كل ما يعكر صفو الحياة العامة : فلهم طرق شقت بين الجبال ، وجسور نصبت فوق الأنهار . وإذا اتجهنا نحو الحياة الخاصة وجدنا مساكنهم أرحب ، وممتلكاتهم آمن » .

قال الأمير : « إن من يتمتع بجميع وسائل الراحة هذه لا بد أن يكون سعيداً ، وأنا لا أحسدهم على شيء منها بقدر ما أحسدهم على السهولة التي يتبادل بها الأصدقاء أفكارهم على بعد الشقة بينهم »



أجاب إملأك : « الأوربيون أقل بؤساً منا ، ولكنهم  
ليسوا سعداء . فالحياة الإنسانية في كل مكان ليست  
سوى حالة لا بد أن يحتمل فيها الكثير ، ولا يتمتع فيها  
إلا بالقليل » .



## الفصل البشاني عشر

### قصة إمالك تستمر

قال الأمير : « إننى لا أود مع ذلك أن افترض أن السعادة موزعة بين البشر على هذا النحو من الشح . ولا مناص من أن اعتقد أنه لو ترك لى الخيار فى الحياة لاستطعت أن أملأ الأيام جميعها بالمباهج والمسرات ، فلن أؤذى أحداً ، ولن أثير غضباً ، وسأكشف لهم جميعه ، وأتمتع بنعمة الرضا والقناعة ، وسأختار أصدقائى من بين الحكماء ، وزوجى من بين الفضليات ، ولن أتعرض — بناء على هذا — لخطر الغدر أو القسوة ، وسيكون أطفالى — بفضل رعايتى — على جانب من العلم والتقوى ، وسيردون لى فى شيخوختى ما منحهم إياه فى طفولتهم . وأى شئ يجرؤ على أن يتعرض لمن يستطيع أن يدعو من كل جانب الآلاف ممن أثروا بكرمه ، أو ساعدوا بنفوذه ؟ ولماذا لا تنزلق الحياة برفق فى تبادل لطيف بين حماية الناس واحترامهم ؟ ومن الممكن أن يتم كل هذا بعيداً عن مساعدة المظاهر الأوربية التى يبدو من آثارها أنها جميلة المظهر أكثر منها نافعة . فلندعهم ونعد إلى رحلتنا » .

فاستطرد إملاك قائلاً : « ومن فلسطين اخترقت مناطق كثيرة بآسيا في زى تاجر بالممالك الأكثر مدنية وعمراناً ، وفي صورة حاج بين سكان الجبال من البربر . وأخيراً بدأت أحن إلى وطني على أمل أن أجد الراحة من أسفاري ومتاعبي في الأماكن التي قضيت فيها السنين الأولى من الحياة ، وحيث أبهج رفاقي الأعزاء بقص مغامراتي . وكثيراً ما كنت أصور لنفسى هؤلاء الذين أمضيت معهم بمرح وهو الساعات السعيدة في فجر الحياة جالسين حولي في المساء ، ودهشين لقصصي ، ومصغين لنصائحي . »  
« وحينما تمكنت هذه الفكرة من ذهني اعتبرت كل لحظة ضائعة إن لم تزدني قرباً من الحبشة . فأسرعت إلى مصر ، وعلى الرغم من تلهفي إلى العودة تأجلت عشرة شهور لتأمل عظمة مضر القديمة والبحث في بقايا معارفها العتيقة . ووجدت في القاهرة خليطاً من كل الأمم ، بعضهم مدفوع بحب المعرفة ، والبعض بأمل الربح ، والكثير منهم برغبة العيش بأسلوبهم الخاص بعيدين عن الأنظار في ثنايا الجماهير ، لأنه من الممكن في مدينة عامرة بالسكان كالقاهرة أن يحصل الإنسان في نفس الوقت على متع الاجتماع وسرية العزلة .

« ومن القاهرة سافرت إلى السويس ماراً على طول

الساحل حتى وصلت إلى الثغر الذى غادرت منه بلادى منذ عشرين عاماً ، فألحقت نفسى بقافلة ودخلت وطنى ثانية .  
«وكنت أتوقع حيثئذ من أقاربى مداعباتهم ، ومن أصدقائى تهنئاتهم ، ولم أفقد الأمل فى أن أبى - مهما علق على الثروة من قيمة - سيعتز بابن استطاع أن يزيد من غبطة الأمة وشرفها . ولكن سرعان ما اقتنعت بأن آمالى ذهبت أدراج الرياح ، فقد توفى أبى منذ أربع عشرة سنة بعد أن قسم ثروته بين إخوتى ، وانتقل إخوتى إلى مناطق أخرى ، ولم يبق من رفاقى على قيد الحياة سوى النزر اليسير ، وبعض من بقى منهم تذكرنى بصعوبة ، والبعض اعتبرنى شخصاً شوهته العادات والأساليب الأجنبية .

« غير أن الإنسان الذى عركته الحوادث وصقلته تقلبات الدهر ليس من السهل أن يتسرب إلى نفسه الهم والغم ، فنسيت بعد فترة وجيزة خيبة أملى ، وحاولت أن أركب نفسى لدى نبلاء المملكة فأذنوا لى بالجلوس إلى موائدهم ، واستمعوا إلى قصتى ، ثم صرفونى . أنشأت مدرسة فحرم على التدريس ، ثم قررت أن أركن إلى الحياة المنزلية الهادئة ، وعرضت نفسى على سيدة كانت كلفة بأحاديثى فرفضت الزوج منى لأن أبى كان تاجراً .  
« وبعد أن أضنأتى التوسل والرفض قررت أن أحجب

نفسى عن العالم إلى الأبد ، وألا أعول بعد الآن على رأى الآخرين وتقلب خواطرهم ، فانتظرت الوقت الذى يفتح فيه رتاج الوادى السعيد حتى أودع الأمل والخوف . وجاء اليوم وكان فى ممتازاً فهنأت نفسى على السجن الدائم .

قال راسلاس : « وهل وجدت السعادة هنا أخيراً ؟ أخبرنى من غير تحفظ هل أنت قانع بحالك أو أنك ترغب فى أن تعود ثانية للتجول وطلب المعرفة ؟ كل سكان هذا الوادى يفخرون بنصيبهم ، وعند زيارة الملك السنوية يدعون الآخرين ليشاركوهم غبطتهم وحبورهم . »

قال إملاك : « أيها الأمير العظيم ! سأطلعك على حقيقة الأمر . إننى لأعرف واحداً من جميع الحاضرين معك لا يلعب الساعة التى دخل فيها هذه العزلة . إننى أقل شقاء من الباقين لأن لى عقلاً مفعماً بالصور التى أستطيع أن أنوعها وأصل بينها كلما أردت ، كما أستطيع أن أسلى نفسى فى عزلتى بتجديد المعرفة التى تأخذ فى الذبول من الذاكرة ، وبتذكر الحوادث فى حياتى السالفة . ومع ذلك ينتهى بى كل هذا إلى أفكار محزنة هى أن ما حصلت عليه الآن عبث ، وأننى لأستطيع أن أتمتع ثانية بمباهجى ومسراتى . أما الباقون الذين لا تحمل عقولهم سوى آثار اللحظة الحاضرة فهم إما أن تفترسهم وجدانات خبيثة ، وإما أن يجلسوا جلسة الأغبياء فى ظلمة فراغ دائم . »

قال الأمير : « أى وجدانات يمكن أن تكدر هؤلاء الذين ليس لهم منافسون ؟ نحن نعيش فى مكان يمنع العجز فيه الحقد ، وتقضى المتع الجماعية على كل حسد » .

قال إملاك : « قد تكون هناك مشاركة فيما نملك من مادة ، ولكن ليس هناك مشاركة فى المحبة أو التقدير . ولا بد أن يكون هناك تفاوت فى السرور . وهذا الذى يجد نفسه موضع الازدراء سيكون دائماً حسوداً ، وسيكون أشد حسداً وأسوأ قصداً إذا قضى عليه بالعيش بين الذين يزدرونه . أما الدعوة التى يسحر بها الآخرون للاندماج فى حالة يشعر الداعون بأنها بائسة فصدرها الحبب الطبيعى لبؤس يائس . فهم يرمون بأنفسهم ويبعضهم البعض ، ويتوقعون أن يجدوا خلاصاً فى الجديد من الرفاق ، وهم يحسدون الغير على الحرية التى أضاعتها حماقتهم ، ويودون لو رأوا جميع الناس مثلهم فى سجن وعزلة .

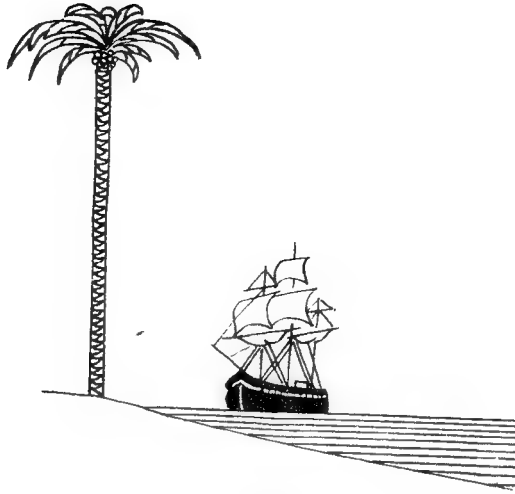
« على كل حال أنا برىء من هذه الجريمة براءة تامة ، فلن يستطيع أحد أن يقول إنه بائس بسبب إغرائى وتضليلى . إننى أشفق على هذه الجماعات المتراحة سنوياً فى التماس الإذن لهم بالانضمام إلى هذا الأسر ، وكم كنت أود لو سمح لى بأن أحذرهم من الخطر الذى يهددهم » .

قال الأمير : « عزيزى إملأك ! سأطالعك على خبيثة  
نفسى . لقد فكرت طويلا أن أهرب من الوادى السعيد ،  
فاختبرت ألبال من كل جانب ، غير أننى أجد نفسى أمام  
عقبة كأداء لاسبيل للتغلب عليها ، فأرشدنى إلى الطريق الذى  
أحطم به سجنى . ستكون أنت الرفيق فى هربى ، والمرشد فى  
غداواتى وروحانى ، والشريك فى حظى ، والموجه الوحيد لما  
أختار فى الحياة » .

فأجاب الشاعر : « سيدى ! سيكون هروبك صعباً ،  
وربما تنثنى عن عزمك وترجع عن استطلاعك . إن العالم  
الذى تتصوره أملس ساكناً كالبحيرة فى الوادى السعيد سوف  
تجده خضماً يرغى بالأعاصير ، ويغلى بالدوامات . وستغمرك  
آونة موجات من العنف ، وتصطدم أحياناً بصخور من  
الخيانة ، وستحن الف مرة بين الأخطاء وضروب المكر  
والخداع وشتى المنافسات والقلق إلى قواعد الهدوء هذه ،  
وتترك برغبة صادقة الأمل فى البعد من الخوف » .

قال الأمير : « لا تحاول أن تصرفنى عن غرضى . إننى  
متلهف لرؤية مارأيت . ولما كنت أنت نفسك برما بالوادى  
فلاريب فى أن حالتك الأولى كانت خيراً من هذه . ومهما  
تكن نتيجة تجربتى فقد صممت على أن أحكم بعينى رأسى

على حالات الناس المختلفة ثم أحدد اختياري طريق الحياة » .  
قال إملأك : « إنني أخشى أن تكون هناك عقبات أقوى  
من إغرائى ونصحى تحول بينك وبين قصدك . ومع ذلك  
مادام عزمك قد نحدد لأنصحك أن تركز إلى اليأس ، فإن  
المستحيل من الأشياء قليل أمام المثابرة والكفاية » .





## الفصل الثالث عشر

### راسلاس يكشف وسيلة الهرب

عندئذ صرف الأمير صفيه ليرتاح ، ولكن قصة العجائب والطرائف بلبلت خواطره ، فقلب في ذاكرته كل ماسمع وأعد عدداً لا يحصى من الأسئلة للصباح .

لقد تقشع في ذلك الوقت الكثير من قلقه فقد وجد صديقاً يستطيع أن يشاركه أفكاره ، ويستعين بتجاربه في تنفيذ خططه ، فلم يقض على قلبه بعد الآن أن يفعم بالآلم والهم في صمت ، واعتقد أنه بصحبة مثل هذا الصديق يمكن أن يحتل أى مكان حتى الوادى السعيد . وإذا استطاعا أن يجوبا العالم معا فذلك كل ما يتمناه .

وفي أيام قليلة انطلقت المياه وجفت الأرض ، وخرج الأمير وإملاكه معاً ليتحادثا بعينين عن أعين الباقين . والأمير الذى كان دائماً شارد الفكر كلما مر من الرتاج قال مخاطباً إياه - وقد بدت على محياه أمارات الحزن - : « لماذا تبلغ

هذا الحد من القوة ، بينما يصل الإنسان إلى هذا القدر من الضعف ؟ » .

فأجاب رفيقه : « ليس الإنسان ضعيفاً ، فإن المعرفة أكثر من معادل للقوة ، وإن المهيمن على الآلات الميكانيكية يسخر من القوة . إننى أستطيع أن أهشم الرتاج ، ولكننى لا أستطيع أن أفعل ذلك سرّاً ، ولذا لا بد أن نحاول طريقة أخرى » .

وبينما كانا يسيران بجانب الجبل لاحظا أن الأرناب التى طردها المطر من أجحارها قد استظلت بالشجيرات ، وكونت ثقبوا خلفها متجهة إلى أعلى فى خط مائل . قال إملاك : « لقد كان رأى القسداى أن العقل البشرى قد استعار فنوناً كثيرة من غريزة الحيوان ، فلا يحط من شأننا — على هذا — أن نتعلم من الأرناب . وربما نستطيع الهرب بثقب الجبل فى نفس الاتجاه . وسنبداً من حيث تطل القمة على وسط الوادى ونعمل إلى أعلى حتى نصل خلف المتوء » .

وحينما سمع الأمير هذا الاقتراح برقت عيناه من الفرح وقد كان التنفيذ سهلاً والنجاح محققاً .

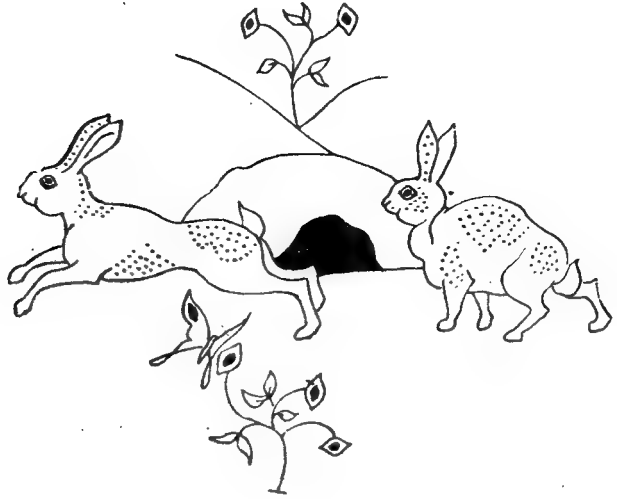
فلم يضيعا وقتاً بل أسرعاً فى الصباح الباكر ليختارا مكاناً مناسباً لتحقيق غرضهما ، فتسلقا بجهد ونصب بين

الصخور والشجيرات ، وعادا دون أن يكشفوا أى جزء يشجع على تنفيذ خططهما . وبنفس الطريقة قضيا اليومين الثانى والثالث بفشل وخيبة أمل . ولكن فى اليوم الرابع وجدوا كهفا صغيراً أخفته الشجيرات ، فقرروا أن يجعلاه تجربتهم .

فأحضرا إملاك آلات صالحة لقطع الأحجار وإزالة الأتربة ، واندفعوا إلى عملهما فى اليوم التالى بلهفة عظيمة وقوة ضئيلة . ولما أنهكتهما جهودهما جلسا يلهثان على الأعشاب . وبدأ الأمير وقتاً ما شبه يائس فقال الرفيق : « سيدى ! إن التدريب سيمكنا من الاستمرار فى عملنا وقتاً أطول . قلاحظ على كل حال إلى أى حد قد تقدمنا ، وستجد أن عملنا سينتهى يوماً ما ، فإن الأعمال العظيمة لا تؤدى بالقوة بل بالجد والمثابرة . وعلى مرمى البصر قصر شيد بأحجار مفردة ، ومع ذلك أنت ترى ارتفاعه واتساعه ، ومن مشى بقوة ثلاث ساعات كل يوم قطع فى سبعة أعوام مسافة تعادل محيط الكرة الأرضية » .

ثم عادا إلى عملهما يوماً بعد يوم فلم يلبثا أن وجدوا فتحة فى الصخر مكنتهما من المرور مسافة أبعد مع قليل جداً من العقبات . فعدا راسلا سريعا هكذا فإلا حسنا ، وقال إملاك : « لا تشغل بالك بآمال أو مخاوف أخرى غير ماتويده الحكمة

والعقل ، فإنه إذا سرتك تنبؤات بالخير فقد تسوءك وتفزعك  
علامات للشر ، وتصبح حياتك كلها فريسة للخرافة . فكل  
مايسهل عملنا وييسره أكثر من قال ، إنه سبب للنجاح .  
وهذه هي إحدى المفاجآت السارة التي تجزى بها الغرائم  
الصهادة . وإن كثيراً من الأشياء يبدو صعباً في الخطوة والتصميم  
ثم تتضح سهولته عند الأداء والتنفيذ .



## الفصل الرابع عشر

### راسلاس وإملاك يستقبلان زائرا غير منتظر

لقد شقا في ذلك الوقت طريقها إلى منتصفه ، وكانت سلواهما في عملهما أنهما اقتربا من الحرية . وحينما نزل الأمير لينعش نفسه بالهواء الطلق وجد أخته « نكايه » واقفة أمام فتحة الهوة ، فدهش ووقف حائراً خائفاً أن يذيع خطته ، ويائساً في الوقت نفسه من أن يخفيها . وفي لحظات قليلة صمم على أن يركن إلى وفائها ، ويحقق سرية الحطة بإعلانها لها إعلاناً لا يشوبه تحفظ .

وقالت الأميرة : « لا تتصور أنني جئت إلى هنا للتجسس . لقد لاحظتك أنت وإملاك طويلاً من نافذتي تتجهان كل يوم إلى نفس البقعة ، غير أنني لم أظن أنه كان لديكما سبب لهذا خير من تلمس ظل أكثر رطوبة أو ضفة أذكى رائحة ، كما أنني لم أتبعكما بأى قصد آخر سوى أن أشارككما الحديث . ولما كان الحب لا الشك هو الذى

كشفت أمركما فلا تدعنى افقد مزايَا كشفى . إني مثلكم  
برمة بالسجن ، ولست أقل منكما رغبة في معرفة ما يجري  
في العالم من أعمال وآلام . فاسمح لي أن أهرب معكما من  
هذا الهدوء الذي لا ذوق فيه ، وسأكون أشد كراهية له  
حينما تتركني . وربما تنكر على مرافقتي لكما ، ولكنك  
لا تستطيع أن تمنعني من اتباعكما .

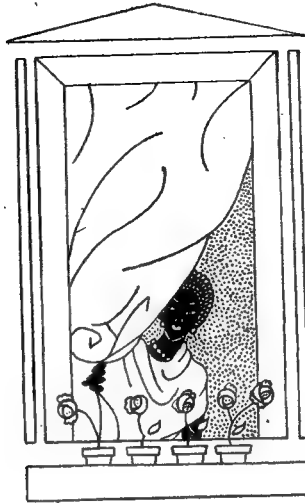
فلم يشأ الأمير أن يخيب رجاء نكايه وقد أحبا أكثر  
من أخواته الأخريات ، وحزن على فوات فرصة يظهر فيها  
مختاراً ثقته بأخته ، وذلك بدعوته للاشتراك في هذه المغامرة .  
واستقر الرأي بناء على هذا أن ترك الوادي معها ، وأنه  
يجب في أثناء ذلك أن تأخذ حذرهما خشية أن يتبعهم إلى الجبل  
أحد الضالين مصادفة أو مدفوعاً بحب الاستطلاع .

وانتهى أخيراً عملهما ، ورأيا نوراً خلف التواء ، ولما  
تسلقوا إلى قمة الجبل شاهدوا النيل في شكل مجرى ضيق  
يتنقل تحته .

نظر الأمير حوله وهو يكاد يطير فرحاً ، وتوقع كل ما يجلبه  
الترحال من مسرات ، أما فكره فقد انتقل إلى ما وراء  
مملكة أبيه . وأما إملاك فع أنه كان سعيداً جداً لهربه إلا أنه

كان أقل توقّعاً للمباهج والمتع في عالم خبره وضاق ذرعاً به  
من قبل .

وأما راسلاس فقد بلغ ابتهاجه باتساع الأفق أمامه حذاً  
لا يجدى معه إغراؤه بالعودة إلى الوادى . لقد أخبر أخته أن  
الطريق أصبح مفتوحاً ، وأنه لم يبق أمامهم سوى أن يستعدوا  
لرحيلهم .



## الفصل الخامس عشر

### الأمير والاميرة يتركان الوادى

ويريان عجائب عديدة

وكان للأمير والاميرة من الجواهر ما يغنيهما كلما ذهبا إلى مركز من مراكز التجارة ، وقد أخفيها بإرشاد إملاك في ملابسهما . وفى الليلة التى اكتمل فيها القمر بديراً ثانية غادر الجميع الوادى . ولم يتبع الأميرة سوى وصيفة من وصيفاتها لم تكن تعلم إلى أين تقصد .

تسلقوا بمشقة عن طريق الهوة ، وبدأوا ينزلون من الجانب الآخر . ثم جالت الأميرة ووصيفتها بأعينهما فى كل مكان ، ولما لم تجدا حداً للفضاء حولهما اعتبرتا نفسيهما على شفا خطر التيه والضلال فى فضاء مرعب . فتوقفتا عن السير ، وارتعدت فرائصهما ، وقالت الأميرة : « إننى أكاد أرتجف عن أن أبدأ رحلة لا أستطيع أن أفهم لها نهاية ، وأن أجروء على الدخول فى سهل مترامى الأطراف حيث يحتمل أن يغير علينا من كل جانب أناس لم أرهم أبداً من قبل » . وشعر



الأمير بنفس الانفعالات تقريباً وإن كان قد ظن أن إخفاءها أليق بالرجولة .

وابتسم إملاك لانزعاجهما ، وشجعهما على الاستمرار في السير ، غير أن الأميرة ظلت على حالة من عدم الاستقرار حتى وجدت نفسها وقد أمعنت في البعد على غير شعور منها إمعاناً تتعذر معه العودة .

وفي الصباح وجدوا في الحقل بعضاً من الرعاة قدموا لهم لبناً وثماراً ، ودهشت الأميرة لأنها لم ترقصراً معداً لاستقبالها ومائدة مليئة بأنفس الأطعمة الشهية الأنيقة . ولكن لما كانت هزيلة وجائعة شربت اللبن وأكلت الثمار . وخيل إليها أنهما ألد طعماً مما ينتجه الوادي .

وواصلوا رحيلهم بتأن وتؤدة لأنهم لم يعتادوا العمل وتحمل المشقات ، ولأنهم عرفوا أنه حتى لو ضلوا الطريق لا يستطيع أحد أن يتبعهم . وفي أيام قليلة بلغوا منطقة أكثر ارحاماً بالسكان . وأطرب إملاك إعجاب رفاقه بتنوع الأخلاق والعادات واختلاف الناس في درجاتهم وأعمالهم .

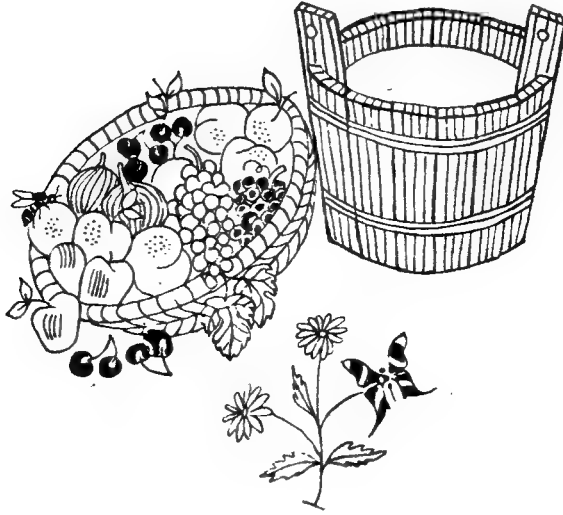
وكانت ثيابهم بشكل لا يثير الشك في أنهم يخفون أى شئ فيها ، غير أن الأمير كان يتوقع أن يطاع حينما

ذهب . وكان يُغضب الأميرة أن هؤلاء الذين مثلوا بين يديها لم يسجدوا أمامها . وكان على إملاك أن يراقبهما بيقظة تامة خشية أن ينم سلوكهما غير المعتاد عن مركزهما ، نأطال مكثهما أسابيع عديدة في أول قرية صادفوها حتى يعودا نفسيهما على رؤية العامة من البشر .

ثم تعلم الرحالتان الملكيان تدريجاً أن يفهما أنهما قد وضعا وقارهما جانباً إلى حين ، وأنه ليس لهما أن يتوقعا من الناس سوى ما يتفق مع السباحة والأدب . وصحبهما إملاك إلى شاطئ البحر من بعد أن أعدهما بالكثير من الإنذار والتحذير لتحمل صحب الميناء وخشونة المنافسات التجارية .

وقنع الأمير وأخته بجميع الأماكن على السواء لأن كل شيء كان جديداً لهما . ولهذا بقيا في النغر شهوراً دون أن تبدو عليهما الرغبة في تجاوزه . وكان إملاك راضياً عن إقامتهما لأنه لم يعتقد أنه من السلامة في شيء أن يعرضهما - غير مدربين في الحياة - لأخطار بلد أجنبي . وأخيراً بدأ يساوره الخوف من أن يفتضح أمرهما ، فاقترح أن يتحدد يوم لرحيلهم . ولم يطمع في أن يختارا لنفسهما شيئاً معيناً بل تركا الحطة كلها لرأى إملاك

وتدبيره . فحجز أمكنة في سفينة تقصد السويس . وحينما  
حان الوقت أقنع الأميرة بمشقة كبيرة أن تتركب السفينة .  
وكانت رحلة سعيدة موفقة . ومن السويس رحلوا إلى  
القاهرة .



## الفضل السادس عشر

يدخلون القاهرة ويجدون كل إنسان سعيداً

وحينما اقتربوا من المدينة التي ملأت الأغراب دهشة قال إمالك : « هذا هو المكان الذى يجتمع فيه الرجالون من جميع أركان الأرض . إنك تجد هنا أناساً من كل طبيعة ومهنة . والتجارة هنا مهنة شريفة ، وسأظاهر بأنى تاجر ، أما أنتم فتعيشون كغرباء لا تبغون من وراء رحلتكم سوى الاستطلاع . وسلاحظ بسرعة أننا أغنياء ، فتيح لنا شهرتنا فرصة للوصول إلى جميع من نرغب فى التعرف بهم . وسترى الإنسانية فى جميع حالاتها ، ثم تستطيع أنت نفسك فى أى وقت شئت اختيار طريقك فى الحياة » .

دخلوا عندئذ المدينة دهشين للصخب والضجيج ، وبرمين يتزاحم الجماهير ، ولم يتغاب التطبع بعد على الطبع : فقد عجبوا لأنهم رأوا أنفسهم يمرون فى الطريق غير ملاحظين ، ويتصلون بأحط الطبقات دون أن يحترمهم أو يحفل بهم أحد . ولم تستطع الأميرة أولاً أن تحتل فكرة تسويتها بالسوقة والدهماء ، لذلك لزمّت حجرتها أياماً حيث قامت على خدمتها وصيفتها « بكواه » كما كانت تفعل فى قصر الوادى .

وباع إملاك - وكان يفهم سبل التجارة - جزءاً من الجواهر في اليوم التالي ، واستأجر بيتاً حلاه بمظاهر الفخامة والعظمة حتى إنه اعتبر في الحال تاجراً على جانب عظيم من الثراء . وجذب أدبه الكثير إلى التعرف به ، كما جعله كرمه ملتقى الكثير من طلاب الحاجات ، فازدحم على مائدته أناس من كل أمة أعجبوا بمعارفه وألحوا في طلب معرفته . ولما كان رفاقه لا يستطيعون الاشتراك في المحادثة لم يكن من الممكن أن يكشفوا عن جهلهم أو دهشتهم ، بل تدرجوا في العالم الجديد تدرجهم في كسبهم معرفة اللغة .

وتعلم الأمير من المحاضرات طرق استعمال النقد وطبيعته ، أما السيدتان فلم تستطعا لمدة طويلة أن تدركا ما فعل التجار بالقطع الصغيرة من الذهب والفضة ، أو لماذا تقدم هذه الأشياء الضئيلة الفائدة بوصفها معادلاً لضرورات الحياة .

فدرس الأميران اللغة سنتين بينما كان إملاك يستعد ليقدم لهما الإنسان في درجاته المتباينة وحالاته المختلفة : فتعرف على كل من كان في حظه أو سلوكه شيء غير عادي ، وتردد كثيراً على المغالين في ملذاتهم ، والمبالغين في تقشفهم ، والخاملين والمجدين ، والتجار والعلماء .

ولما كان الأمير يستطيع وقتئذ أن يتحادث بطلاقة ،

وقد تعلم ما لا غنى عنه من الاحتراس لإخفاء شخصيته في تعامله مع الغرباء ، بدأ يصطحب إملاك إلى المجتمعات ، وينضم إلى جميع المجالس عله يستطيع اختيار طريقه في الحياة .

وقد ظن وقتاً ما أنه لا حاجة إلى الاختيار فإن الجميع على ما يبدو له متساوون في السعادة ، وحيثما ذهب وجد ابتهاجاً وشفقة ، وسمع أغنية الفرح أو ضحكة مبعثها هدوء البال . لقد شرع يعتقد أن العالم قد فاض بالخير العميم : فليست هناك حاجة لم تقص ، ولا جدارة لم توف حقها ، وكل يد قد سحّت سخاء ، وكل قلب قد ذاب شفقة وعطفاً . ثم يقول : « فمن ذا الذى يقدر له بعد ذلك البؤس والشقاء ؟ » .

وافق إملاك على هذا الوهم السار ، ولم يشأ أن يحطم الأمل القاصر حتى قال الأمير ذات يوم بعد أن جلس صامتاً هنيهة : « إننى لا أعرف السبب فى أننى أقل سعادة من أى واحد من أصدقائنا . إننى أراهم دائماً ومن غير تخلف مبتهجين ، لكننى أشعر بأن ذهنى قلق ومضطرب . إننى غير قانع بهذه المسرات التى أتظاهر بالسعى لها أكثر من غيرها . وأعيش بين جماهير اللهو لأهرب من نفسى أكثر من أن أتمتع بصحبتهم ، وأحدث ضجيجاً وفرحاً لأخفى همومى » .

قال إملاك : « قد يتمكن كل إنسان — باختباره عقله —

بما يجرى فى عقول الآخرين فاذا كنت تشعر أن مرحك متكلف فقد يعقل أن يؤدى بك هذا إلى الشك فى صدق المرح لدى رفاقك، وإذا كنت تحسدهم على سرورهم فانهم يحسدونك كذلك على سرورك ، فان الحسد غالباً متبادل . ولا بد أن يمضى وقت طويل قبل أن نقنع بأن السعادة لا توجد مطلقاً ، غير أن كل واحد يعتقد بوجودها فى الآخرين ليحيى الأمل فى الحصول عليها لنفسه . وقد ظهر فى المجتمع الذى مررت به ليلة أمس مثل هذه الحيوية فى الجو والخيال المحلق فى الفضاء ، وهما أليق بكائنات من طبقة عليا خلقت لتعمر مناطق سعيدة آمنة لا يرقى إليها الهم والأسنى . ومع ذلك صدقنى أيها الأمير أنه لا يوجد إنسان لا يخشى اللحظة التى تدفعه فيها العزلة إلى أن يسيطر عليه التأمل .

قال الأمير : « قد يصدق هذا على الآخرين بما أنه يصدق على ، ولكن مهما كان بؤس الإنسان عامة فلا بد أن تتفاوت حالاته فى السعادة . والحكمة من غير شك هى التى توجهنا إلى أن نتوخى أقل قدر ممكن من الشر عند اختيار طريقنا فى الحياة » .

فأجاب إملاك : « إن أسباب الخير والشر مختلفة ومحدودة ، ويغلب أن يندمج بعضها فى بعض ، وأن تتنوع بعلاقات مختلفة ، وهى خاضعة لحوادث لا يمكن التنبؤ بها إلى درجة

أن من يحدد حالته بأسباب مختارة ومفضلة لا تقبل المناقشة والإنكار فإنه لابد أن يعيش ويموت سائلاً ومداولاً .  
قال راسلاس : « لكن لا شك أن الحكماء - الذين نستمتع لهم بإكبار وإعجاب - قد اختاروا لأنفسهم شكل الحياة الذي غلب على ظنهم أنه كفيل بإسعادهم » .  
قال الشاعر : « قلما يعيش الإنسان بالاختيار : فكل إنسان قد وضع في حالته الراهنة لأسباب لم يفطن إليها ، ولم يتعاون دائماً في إيجادها تعاوناً إرادياً ، ولهذا ينذر أن تصادف إنساناً لا يظن أن نصيب جاره خير من نصيبه » .  
قال الأمير : « إنني لسعيد أن أعرف أن ميلادي قد منحني على الأقل ميزة لم يُمنَحها الآخرون وذلك بإقداى على أن أقرر لنفسي . ها هو ذا العالم أمامي ، سأنظر إليه نظرة فاحصة في أى وقت شئت ، ولابد أن السعادة موجودة في مكان ما » .





## الفصل السابع عشر

### الأمير يختلط بالشباب الممتليء حيوية ومرحاً

نهض راسلاس في اليوم التالي ، وقرر أن يبدأ تجاربه على الحياة ، وصاح : « الشباب هو عهد البهجة . وسأصل نفسي بالشباب الذي همه الوحيد أن يشبع رغباته ، ويقضى جميع أوقاته في متع متتابعة » .

وسمح له في الحال أن يلتحق بأمثال هذه الجمعيات غير أنه عاد بعد أيام قليلة مجهداً ساخطاً ، فطرب هؤلاء الشبان كان ينقصه الخيال ، وضحكهم من غير باعث ، وملذاتهم حسية ونهمة ولم يسهم فيها العقل بنصيب ، وسلوكهم في نفس الوقت جنوني وضع . فقد سخرؤا من النظام والقانون غير أن صرامة القوة أغتمهم ، وعين الحكمة أخجلتهم .

وسرعان ما استنتج الأمير أنه لن يكون أبداً سعيداً في ميدان من ميادين الحياة يندى جبينه لذكره ، وظن أنه

لا يليق بكائن عاقل أن يعمل من غير خطة ، ولا أن يحزن أو ينتهج بمحض المصادفة ، ثم قال : « يجب أن تكون السعادة ثابتة دائمة لا يشوبها خوف أو ارتياب » .

غير أن صراحة رفاقه الشبان وأدبهم قد أكسبهم الكثير من احترامه وتقديره حتى إنه عز عليه أن يتركهم من غير تحذير أو اعتراض ، فقال : « أصدقائي ، لقد فكرت جيداً في أساليبنا وآمالنا فوجدت أننا قد أخطأنا الطريق إلى مصلحتنا الخاصة . فإن السنوات الأولى في حياة الإنسان يجب أن تزوده لسنواته الأخيرة ، فيأخذ الإنسان من قوته لضعفه ومن شبابه لشيخوخته . ومن لا يفكر لا يكون أبداً حكيماً ، والطيش المتواصل لا بد أن ينتهى بالجهل . والإفراط قد يشعل الروح ساعة ولكنه سيجعل الحياة قصيرة وبائسة . فلنقدر أن الشباب لا يدوم طويلاً ، وأنه في عهد النضج — حينما يزول سحر الخيال ، ولا تخوم حولنا أطياف البهجة — لن نجد الراحة سوى في تقدير الحكماء وفي وسيلة العمل الصالح . فدعونا نقلع عن هذا — والإقلاع لا يزال في مقدورنا — ونعش بوصفنا رجالاً لا بد أن يهرموا يوماً ما ، وسيكون من أشنع الشرور لهم ألا يذكرُوا سنواتهم الماضية إلا بالحقائق ، وألا يذكرهم بازدهار صحتهم السالفة سوى

أمراضهم التي أحدثها شغيبهم وعربدتهم .  
حملق بعضهم في بعض برهة في صمت ، وأخيراً  
أبعدوه بضحك عام متواصل .  
ولم يشفع له الشعور بنبل عواطفه وحسن نيته في تثبيت  
قدمه أمام تهكمهم الرهيب ، غير أنه استعاد هدوءه  
واستأنف بحثه .



## الفصل الثامن عشر

### الأمير يحد رجلا عاقلا وسعيداً

وبينما كان سائراً ذات يوم في الطريق رأى بناء رحباً كانت أبوابه المفتوحة بمثابة الإذن للجميع بالدخول ، فتمع جموع الناس المتدفقة ، ووجده بهواً أو مدرسة للخطابة ، يلقي فيها الأساتذة المحاضرات لمستمعيهم . واستقرت عينه على حكيم ارتفع مكانه عن الباقين ، وتكلم بحماسة عظيمة عن ضبط الوجدان . وكان منظره مبجلاً ، وعمله وقوراً ، ولفظه واضحاً ، وأسلوبه رقيقاً . وقد بنى بحجج قوية وأنواع شتى من وسائل الإيضاح أن الطبيعة الإنسانية تتدهور وتنحط حينما تسود القوى الدنيا القوى العليا ، وأنه حينما يغتصب الخيال - مصدر الوجدان - مملكة العقل لن ينتج سوى الأثر الطبيعي : حكومة غير شرعية وانزعاج وارتباك . ويخون الخيال حصون العقل تأييداً للثائرين عليه ، ويشير بنيه للخروج على الحكمة سلطانهم الشرعى . وشبه العقل بالشمس ضوءها ثابت ومنسجم ودائم ، والخيال بالشهاب لا يكاد يلمع بريقه حتى يختفى ، وهو غير منتظم في حركته ، وخادع في اتجاهه .

ثم سرد المبادئ المتباينة التي تذكر من حين لآخر لضبط  
الوجدان ، وأوضح سعادة هؤلاء الذين حصلوا على النصر  
المبين الذي لم يعد الإنسان بعده عبداً للخوف ، ولا مخدوعاً  
بالأمل ، لم يعد هزيباً بالحسد ، ولا وقوداً للغضب ،  
ولا عتينا من فرط الحنان ، ولا مكتئباً بالحزن ، بل يسير  
هادئاً ساكناً في شدة الحياة وتقلباتها ، كما تم الشمس  
دورتها في السماء الصافية والعاصفة على السواء .

وذكر أمثلة عديدة لأبطال لم يحركهم الألم أو السرور ،  
ونظروا غير مكترئين إلى هذه الأشكال أو الأعراض التي  
يسمها العامة خيراً وشرّاً . واستحث سامعيه على أن يتنزهوا  
عن الأغراض ، وأن يسلحوا أنفسهم أمام سهام الحقد والجد  
العائر بالصبر الجميل . وختم كلامه بأن هذه الحالة لا غيرها  
هي السعادة ، وأن هذه السعادة في مقدور كل إنسان .

استمع إليه راسلاس بالإكبار اللائق بتعليمات كائن ممتاز .  
وبعد أن وقف في انتظاره بالباب التمس الإذن بزيارة السيد  
العظيم ذي الحكمة الحقة . وتردد المحاضر برهة حيناً وضع  
راسلاس كيساً من الذهب في يده ثم تقبله بمزيج من  
البهجة والدهشة .

قال الأمير لإملاك عند عودته : « لقد وجدت رجلاً  
يستطيع أن يعلم كل ما يجب أن يعرف ، رجلاً يرقب من

عرش حكمته المكين مناظر الحياة تضطرب تحته . إنه يتكلم والانتباه يعلق بشفتيه ، ويفكر والإقناع تختم كلامه . وسيكون هذا الرجل مرشدى فى المستقبل . سأتعلم نظرياته ، وأقلد حياته » .

قال إِملاك : « تريت فى ثقتك وإعجابك بمعلمى الأخلاق ، فإنهم ملائكة حين يتكلمون ، وأناسى حين يعيشون » .

وزاره راسلاس بعد أيام قليلة لأنه لم يستطع أن يفهم كيف يستطيع إنسان أن يفكر بمثل هذه القوة من غير أن يكون مقتنعاً بما يقول ، غير أنه لم يسمح له بالدخول . وكان قد عرف وقتئذ قوة المال فشق طريقه بقطعة من الذهب إلى الغرف الداخلية . وهناك وجد الفيلسوف فى حجرة نصف مظلمة شاحب اللون وعلى بصره غشاوة ، وقال : « لقد أتيت ياسيدى فى وقت لا ينفع فيه أى نوع من أنواع الصداقة الإنسانية ، إذ لا سبيل إلى علاج ما أعانى ، ولا وسيلة إلى رد ما فقدت ، فابتنى - ابنتى الوحيدة - قد ماتت بالحمى ليلة أمس ، وقد كنت أمنى نفسى فى ظل حنوها بجميع وسائل الراحة فى شيخوختى . لقد انتهت جميع آرائى وأهدافى وآمالى . وأنا وحيد الآن بانفصالى عن المجتمع » .

قال الأمير : « سيدى إن الفناء حدث لا يمكن أبداً أن يفاجئ الحكيم . فنحن نعلم أن الموت دائماً قريب ، ولهذا لا ينبغى أن يُغفل عن ذكره فى أى وقت من الأوقات » .

أجاب الفيلسوف : « أيتها الشاب إنك تتكلم كلام إنسان لم يشعر أبداً بالآلام الفراق » . قال راسلاس : « أنسيت إذن المبادئ التي أيدتها بقوة ؟ أليس في استطاعة الحكمة أن تسليح القلب أمام النكبات ؟ فلتدرك أن المظاهر متغيرة بالطبيعة ، لكن الحقيقة والحكمة لا تتغيران أبداً » . قال الحزين : « أى راحة تستطيع الحقيقة والحكمة أن تقدمها لي ، وما قيمتهما لي الآن سوى أن تخبراني بأن ابنتي لن تعود ؟ » .

ثم خرج الأمير الذي لم تسمح له إنسانيته أن يؤنب الفيلسوف في بؤسه موقناً بأن الأصوات البلاغية الجوفاء عبث ، وأن الكلام المصقول والجمل المنمقة هراء .



## الفصل التاسع عشر

### لمحة في حياة الرعاة

وكان لايزال مشغولاً بنفس البحث ، فلما سمع عن زاهد بالقرب من الجندل الأسفل للنيل وقد ملأ البلاد بشهرة قداسته قرر أن يزوره في صومعته ليبحث عن السعادة — التي لم تستطع الحياة العامة أن تقدمها — هل هي موجودة في حياة العزلة ، وهل الرجل — الذي أكسبته شمائله وسنه الاحترام — يستطيع أن يعلم فناً خاصاً لتجنب الشرور أو احتمالها ؟

وافق إملاك والأميرة على أن يرافقه ، وبعد أن أعدوا العدة اللازمة بدأوا رحلتهم . وكان طريقهم يقع بين الحقول حيث كان الرعاة يعنون بقطعانهم ، وحيث كانت الحملان ترتع في مراعيها . قال الشاعر : « هذه هي الحياة التي اشتهرت غالباً ببراعتها وسكونها ، فلنقض ظهيرة اليوم بين

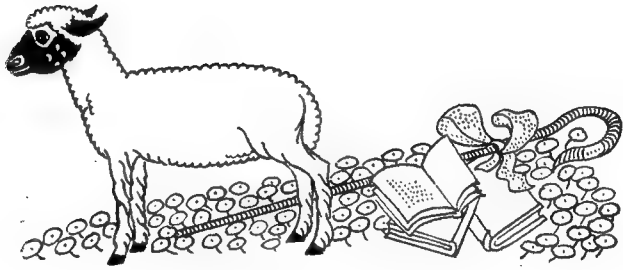


خيـام الرعاة لنعرف هل ستنهى أبحاثنا بالبساطة التى يتصف بها هؤلاء الرعاة .» .

فسره الاقتراح ، وأغروا الرعاة بالهدايا الصغيرة والأسئلة التى تزيد الألفة بينهم أن يبدوا آراءهم فى حالتهم . وكانوا جهلة ، وفى أخلاقهم جفوة ، ولم يستطيعوا إلا قليلا أن يوازنوا بين حسنات حرفتهم ومساوئها ، كما كانوا مبهمين فى قصصهم وأوصافهم إلى حد أنه لم يتعلم منهم سوى النزر اليسير . لكن كان من الواضح البين أن قلوبهم مكلومة بالسخط ، وأنهم اعتبروا أنفسهم مقضيا عليها بالكـد والشقاء لينعم الأغنياء بحياة البذخ والترف . ونظروا بحقد غاشم إلى هؤلاء الذين ارتفعوا فوقهم درجات .

وتكلمت الأميرة بعنف قائلة إنها لن تسمح أبداً لهؤلاء الحسدة من الهمج أن يكونوا رفاقا لها ، وإنه لا ينبغي لها أن تتسرع فى رغبها أن ترى المزيد من نماذج السعادة الريفية ، غير أنها لم تستطع أن تعتقد أن أخبار المسرات البدائية جميعها خرافية ، ومع ذلك كانت تشك فى أن للحياة ما يمكن تفضيله تفضيلا عادلا على القناعة الهادئة بالحقول والغابات ،

وارتجت أنه سيأتى الوقت الذى تجمع فيه الأزهار من غرس  
يدها بصحبة القليل من الرفاق الفضليات الرقاق ، وتداعب  
صغار شاتها ، وتنصت من غير عناء ولا ملل بين السواقي  
والنسيم إلى إحدى وصيقاتها تقرأ فى الظل الظليل .



## الفصل العشرون

### مساوىء الرخاء والتوفيق

واصلوا رحلتهم فى اليوم التالى حتى اضطرتهم حرارة الشمس إلى أن يبحثوا عن ظلة يحتمون بها . فرأوا على مسافة قصيرة غابة كثيفة الأشجار ما كادوا يدخلونها حتى أدركوا أنهم يقتربون من مساكن أهلة بالسكان : فقد كانت الشجيرات مسواة بعناية بحيث تترك ممرات تظللها أفنان لم تدع للضوء فيها منفذاً ، وكانت غصون الأشجار المتقابلة متشابكة تشابكاً مصطنعاً ، وقد أقيم فى الأماكن الحالية أرائك من الحشائش تتخللها أزهار وجدول كان يتهادى على طول الطريق المتعرج ، وقد صبت صفته أحياناً فى حياض صغيرة ، وعوق جريانه آونة تلال مصطنعة تراكت لتزيد من قوة خريره .

ومشوا الهوينى خلال الغابة ، وابتهجوا بمثل هذا المأوى غير المنتظر ، وسلى بعضهم بعضاً بالتكهن عن الشخصية التى كان لها من الفراغ والفن ما مكنها من هذا الترف السار فى مثل هذه المناطق الحشنة الموحشة .

وحينما تقدموا فى المسير سمعوا نغم الموسيقى ، ورأوا الشباب والعذارى يترقصون فى الغابة . ولما ذهبوا أبعد شاهدوا

قصرأ تلوح عليه سماء العظمة والمهابة مبنيا على تل ، ومحاطاً بالغياض . وسمحت لهم تقاليد الضيافة الشرقية بالدخول ، فرحب بهم السيد ترحيب رجل ثرى سخى .

وقد بلغت مهارة المضيف مبلغاً جعله يكشف بسرعة أنهم ليسوا ضيوفاً عاديين ، فبسط مائدته بسطاً فخماً ، واسترعى انتباهه فصاحة إملاك ، وأثار احترامه أدب الأميرة السامى . وحينما تقدموا للرحيل ألح عليهم فى البقاء ، وكان أكثر إلحاحاً فى اليوم التالى ، وكان من السهل إغراؤهم بالملكث ، وتطور أدب المجاملة إلى الثقة ورفع الكلفة .

ورأى الأمير وقتئذ أن جميع الخدم مبهجون ، وأن وجه الطبيعة مبتسم حول المكان ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الأمل فى أنه سيجد هناك ما كان ينشده ، وحينما كان يهتئ السيد بضياعه أجابه متأوها : « لحالى من غير شك مظهر السعادة ، لكن المظاهر خداعة ، فإن توفيقى قد وضع حياتى فى خطر ، وباشا مصر هو عدوى محققاً بثرأى وقربى من قلوب الناس . ولقد حمأى منه إلى الآن أمراء المملكة . لكن لما كان معروف الأمراء غير دائم فإننى لا أعرف متى يُغرى حمأى باقتسام الغنيمة مع الباشا . لقد أرسلت كنوزى إلى مملكة نائية ، وأنا على استعداد لاقتفاء أثرها عند أول إنذار .

وعندئذ سيشغب أعدائى فى دارى ، وينعمون بالحدائق التى  
قد غرستها » .

فاشترك الجميع فى الرثاء له للخطر المحقق به ، وأبدوا  
أسفهم لنفيه ، وانتاب الأمير مزيج من الحزن والسخط  
جعلها تأوى إلى مخدعها . واستمروا مع مضيفهم الشفيق  
أياماً قليلة أخرى ، ثم توجهوا لبيحثوا عن الزاهد .



## الفصل الواحد والعشرون

### سعادة العزلة — حياة الزاهد

وصلوا في اليوم الثالث بإرشاد الفلاحين إلى صومعة الزاهد ، وكانت عبارة عن كهف في جانب الجبل يظله النخيل ، وعلى مسافة عظيمة من الجندل بحيث لا يسمع في الكهف سوى خرير رتيب رقيق أعد العقل لتأملات حزينة ، وخاصة حينما يزيده حفيف الأشجار قوة . وقد تحسن عمل الطبيعة البدائي بفعل الإنسان : فاحتوى الكهف على أقسام كثيرة استعملت في أغراض مختلفة ، وصلحت غالباً سكناً للرحالين الذين أدركهم الظلام والزواجع في الطريق .

جلس الزاهد على أريكة بالقرب من الباب لينعم بنسيم المساء العليل ، وقد وُضِعَ في جانب كتاب وأوراق وأقلام ، وفي جانب آخر أنواع شتى من أدوات الرياضة . وحينما اقتربوا على غفلة منه لاحظت الأميرة أنه لا يبدو عليه مظهر رجل وجد الطريق إلى السعادة أو استطاع أن يدل عليه . وحيوه باحترام عظيم ، فرد التحية رد رجل ألف أساليب القصور ، ثم قال : « يا بني إن كنتم قد ضللتكم الطريق فستزودون لمدة ليلة بكل وسائل الراحة حسبما تسمح

به ظروف هذا الكهف . إن لى كل ما تتطلبه الطبيعة فلا  
تنتظروا أنفس الأطعمة الشبيهة الأنيقة فى صومعة زاهد .  
فشكروه ، ولما دخلوا سرتهم أناة المكان وانتظامه ،  
وقدم لهم الزاهد لحماً وتليذا ، منع أنه اقتصر فى طعامه على  
الفاكهة والماء . وكان حديثه مرحاً من غير خفة ، وتقياً  
من غير حماسة . وسرعان ما كسب تقدير أضيافه ، وندمت  
الأميرة لتسرعها فى الحكم عليه .

وأخيراً بدأ إهلاك على النحو الآتى : « إننى لا أعجب  
الآن من أن شهرتك قد طبقت الآفاق ، فقد سمعنا عن  
حكمتك فى القاهرة ، وجئنا إلى هنا نلتمس توجيهك لهذا  
الشاب وهذه السيدة فى اختيارهما طريق الحياة » .

أجاب الزاهد : « كل شكل من أشكال الحياة خير  
لمن يعيش عيشة صالحة . وإنى لا أستطيع أن أعطى قاعدة  
للاختيار سوى أن يبتعد عن جميع الشرور الظاهرة » .

قال الأمير : « إن من يهب نفسه للعزلة التى زكيتها  
يقدوتك الصالحة لا بد أن يتجنب الشر » .

قال الزاهد : « لقد قضيت فى العزلة خمس عشرة  
سنة ، غير أننى لا أود أن تكسب قدوتى أى مقلدين . لقد  
التحقت بالسلاح فى شبابى ، ورقيت إلى أسمى الدرجات  
العسكرية ، وعبرت ممالك شاسعة على رأس كتائبى ،

وشهدت مواقع كثيرة وألواناً من الحصار . ولما ضقت  
أخيراً بتفضيل ضابط شاب على شخصى ، وشعرت بأن  
قوتى آخذة فى الهبوط قررت أن أختم حياتى فى سلام بعد  
أن وجدت العالم مليئاً بالمكائد والشقاق والبؤس . وكنت قد  
نجوت مرة من مطاردة العدو بفضل حماية هذا الكهف ،  
ولهذا اخترته مقرأً لى مدى الحياة . ولقد استخدمت عمالاً  
ليحولوه إلى حجر ، وملأته بكل ما يحتمل أن أحتاج إليه .  
» وابتهجت بانصرافى عن العالم كما يبتهج الملاح عند  
دخوله الميناء بعد أن عصفت بسفينته الزوابع والأعاصير ،  
وذلك للتغير المفاجئ من جلبة الحرب وسرعتها إلى الدعة  
والراحة . ولما انتهى السرور بالجدة قضيت ساعاتى فى  
اختبار أنواع النبات التى تنمو فى الوادى ، والمعادن التى  
جمعتها من بين الصخور ، غير أن البحث أصبح فى الغالب  
مملًا ومجهداً . لقد كنت أحياناً قلقاً ومبيل للفكر ، وعقلى  
مضطرب بألف من ارتباكات الشك ومظاهر الخيال التى  
تستولى على دائماً لأننى لا أجِد فرصة للراحة ولا للتسلية .  
إننى أخجل أحياناً من أن أفكر فى أننى لا أستطيع أن أصون  
نفسى من الرذيلة إلا بالبعد عن مزاوله الفضيلة . وقد بدأت  
أشك فى أننى كنت مدفوعاً إلى العزلة بالسخط لا بالتقوى .  
إن خيالى يخبط خبط عشواء فى أوهام جنونية ، وإننى أرى



لحالى لأننى فقدتُ أكثر من الكثير ولم أكسب إلا أقل من القليل . وإذا كنت قد نجوت بالعلزلة من القدوة السيئة فإنه يعوزنى فى الوقت ذاته نصيحة الصالحين وحديثهم . ولقد وازنت طويلا بين شرور المجتمع ومزاياه ، وقررت أن أعود غداً إلى العالم . إن حياة المنعزل ستكون من غير شك بائسة ، لكنها ليست يقينا تقيّة .» .

فدهشوا لقراره ، وبعد فترة قصيرة اقترحوا أن يصبحوه إلى القاهرة ، فحضر وأخرج - كنزاً عظيماً كان قد أخفاه بين الصخور ، ثم رافقهم إلى المدينة ، وحينما اقترب منها نظر إليها مفتوناً بمباهجها .



## الفصل الثاني العشر

### سعادة حياة وجهت حسب الطبيعة

وكثيراً ما اختلف راسلاس إلى مجلس من العلماء اجتمعوا في أوقات معينة ليحلوا عقولهم ، ويوازنوا بين آرائهم . وكان جدالهم حاداً ، وقد بلغ أحياناً غاية العنف ، واستمر غالباً حتى نسي المتجادلون الموضوع الأصلي لجدلهم . وكانت هناك أخطاء شائعة بينهم : فكل واحد كان يرغب أن يملأ على البقية ، وكان يلذ لكل فرد أن يستمع إلى الاستخفاف بعبقرية الآخر ومعارفه .

وكان راسلاس يقص في هذا المجلس حديثه مع الزاهد واستغرابه حينما سمعه يزري بأسلوب في الحياة كان قد اختاره بإرادته وتبعه حامداً قانعاً . فاختلفت آراء السامعين : فرأى البعض أن الحكم عليه بالسجن الدائم كان العقوبة العادلة لحماقته في الاختيار ، ورماه بالنفاق واحد من أحدثهم سناً وهو في حالة شديدة من الهياج والعنف ، وتكلم البعض عن حق الجماعة في عمل الأفراد ، واعتبر العزلة هروباً من الواجب ، وأقر آخرون أنه يأتي وقت توفي فيه حقوق الجماعة على الفرد فيحق له أن يعزل نفسه عزلاً تاماً حتى يعيد النظر في حياته وينقى قلبه .

وظن واحد — كان أكثر تأثراً بالقصة من الباقين — أن من المحتمل في سنوات قليلة أن يعود الزاهد إلى عزلته ، وربما عاد مرة أخرى من عزلته إلى العالم إذا لم يمنعه الحياء أو يعترض طريقه الموت . ثم قال : « لأن الأمل في السعادة أقوى من أن يمحوه أطول التجارب . إتنا نشعر بالبوئس في الحالة الراهنة مهما كانت — ولا بد من أن نعرف بذلك — ومع هذا حينما تبعد نفس الحالة عنا يصورها لنا الخيال شيئاً مرغوباً فيه ، ولكن سيأتى حتماً الوقت الذى لا تصبح فيه الرغبة سبب شقائنا ، ولا يكون الإنسان شقياً إلا بخطئه هو نفسه .

وقال فيلسوف كان قد سمعه وعلامات الجزع بادية عليه : « هذه فعلا هى الحالة الراهنة بالنسبة للعقلاء . لقد جاء فعلا الوقت الذى لا يكون فيه الإنسان بائساً إلا بخطئه . هو نفسه ، وليس هناك أكثر خمولا من أن يبحث عن السعادة التى تعطفت الطبيعة بوضعها فى متناول يدينا . فطريق السعادة هو أن تعيش حسب الطبيعة بإطاعة ذلك القانون العالمى الدائم الذى تأثر به كل قلب فى بدء تكوينه ، والذى لم يخطئه عليه مبدأ لكن حفره القدر ، ولم يلحق بالتربية بل ولد معنا . فمن عاش حسب الطبيعة فإنه لن يعاني شيئا من خدع الأمل ولا إلحاح الرغبة ، وسيتقبل الأمور ويرفضها .

بحالة واحدة من اعتدال المزاج ، وسيعمل تارة أو يعانى تارة أخرى حسبما يمليه منطق الأشياء ، وسيسلى الرجال الآخرون أنفسهم بالتعريفات الدقيقة أو الأقيسة المنطقية المعقدة . فليتعلموا أن يكونوا عقلاء بوسائل أسهل ، وليتأملوا وعل الأجمة وعصفور الغيضة ، وليعتبروا بحياة الحيوان الذى تنظم حركاته الغريزة : إنه يطيع رائده فيعيش سعيداً . اطرحوا جانباً عوائق المبادئ التى لا يفهمها أولئك الذين يتشدقون بها فى صلف وفخر ، ولنتذكر دائماً تلك البديهية البسيطة المعقولة : الانحراف عن الطبيعة انحراف عن السعادة . وبعد أن تكلم نظر جوله نظرة تم عن الرضا ، وطاب له أن يشعر بعمله الخير ، وقال الأمير فى تواضع تام : « سيدى ، بما أنى - كغيرى من الناس - راغب فى السعادة كنت منتهبها بجميع جوارحى إلى مقاتلك ، وإنى لأشك فى صدق رأى قدمه رجل على هذا الجانب العظيم من المعرفة تقديم الواثق مما يقول ، ولست أطلب سوى أن أعرف كيف أعيش حسب الطبيعة » .

قال الفيلسوف : « حينما أجد شباباً متواضعين ومطيعين إلى هذا الحد لأضن عليهم بالمعرفة التى مكنتنى من تقديمها دراساتى . العيش حسب الطبيعة هو أن يعمل الإنسان مع الاعتبار الواجب للصلاحيه الناشئة عن علاقات الأسباب

والمسيبات وخصائصهما ، وان يتفق مع الخطة العظيمة  
الثابتة للسعادة العالمية ، وأن يتعاون مع الاستعداد والميل  
العام لنظام الأشياء الحاضر » .

وسرعان ما وجد الأمير أن هذا أحد الحكماء الذين  
يقول فهمه لهم كلما طال استماعه إليهم ، لذلك انحنى وصمت .  
ونهض الفيلسوف ظانا أن الأمير قد اقتنع ، وأن الباقيين  
قد سقط في أيديهم ، وغادر المكان مغادرة رجل كان قد  
تعاون في إدارة النظام الحاضر للكون .



## الفصل الثالث والعشرون

### الأمير وأخته يقتسمان القيام بالملاحظة

عاد راسلاس إلى البيت مستغرقاً في التأملات ، متردداً في اختيار الطريقة التي يوجه بها خطواته المستقبلية ، لقد وجد أن العلماء والسذج على السواء يجهلون الطريق للسعادة ، غير أنه لما كان لا يزال شاباً طمأن نفسه بأن الوقت سيتسع لتجارب أخرى ولمزيد من البحوث . وأعرب لإملاك عن ملاحظاته وشكوكه ، فأضاف بإجابته شكوكاً جديدة وملاحظات لم تدع له سبيلاً للراحة ، ولهذا زاد من التحدث إلى أخته بصراحة أكثر . وقد كان لها هي أيضاً نفس الأمل ، وساعدته دائماً في البحث عن سبب عدم توفيقه إلى ذلك الوقت واحتمال توفيقه في النهاية .

ثم قالت : « إننا لم نعرف إلى الآن سوى القليل عن العالم ، ولم نكن أبداً في أعمالنا عظماء ولا من الدهماء . ومع أنه كان الملك فينا في بلادنا لم تكن لنا سلطة ، ولم نر بعد في هذه البلاد الجوانب الخاصة بسلام الأسرة . وإملاك لا يشجع بحثنا خشية أن نجده في الوقت المناسب مخطئاً . سنقتسم العمل بيننا فتحاول أنت ما يوجد في أهباء

القصور الفخمة . أما أنا فأجوس خلال الظلال في الحياة المتواضعة . وربما يكون الأمر والساطان هما النعمة العظمى لأنهما يهيئان فرصاً أكثر لفعل الخير ، وربما يوجد بين السكان المتواضعين من ذوى الحظ الوسط ما تستطيع هذه الحياة منحه من سعادة ، فهم أحط من أن يسموا إلى الخطط العظيمة ومسئولياتها ، وأسمى من أن ينحدروا إلى درجة العوز والضيق وآلامهما .



## الفصل الرابع والعشرون

### الأمير يلتمس السعادة في الطبقات العليا

حينئذ راسلا س الخطه ، وظهر في اليوم التالى محاطاً بحرس فخيم في قصر الباشا ، وسرعان ما احتل مركزاً ممتازاً لسمو منزلته ، وسمح له أن يتصل اتصالاً وثيقاً بالقادة ، وأن يتحادث في أغلب الأوقات مع الباشا نفسه بوصفه أميراً أتى به حب استطلاعاه من بلاد نائية .

رمال أول الأمر إلى الاعتقاد بأن الرجل الذى يقترب منه الجميع مبجلين ، ويصفون إليه مطيعين ، وتخوله سلطته أن يصدر أوامره إلى مملكة بأسرها لا بد أن يكون سعيداً . ثم قال : « لا يمكن أن يوجد سرور يعادل سرور الشعور بهجة آلاف جعلتهم الإدارة الحكيمة جميعاً سعداء ، ومع ذلك لما كانت هذه المتعة السامية لا تكون — بسبب قانون التبعية — إلا من حظ فرد واحد في الأمة الواحدة ألا يكون من المعقول جداً أن نظن أن هناك نوعاً آخر من القناعة أكثر ذيوماً وأقرب حصولاً ، وأنه يتعذر أن تخضع الملايين لإرادة رجل



واحد لا لغاية سوى أن تملأ صدره برضا لا شريك له فيه؟ ..  
وكثيراً ما جالت هذه الأفكار في خاطره ولم يجد حلاً  
للمشكلة . لكن لما كانت الهدايا والأساليب المهدبة قد  
أكسبته صداقة أكثر توثقاً وجد أن كل رجل تقريباً شغل  
منصباً سامياً في العمل أبغض جميع الباقين وأبغضوه ،  
وأن حياتهم كانت سلسلة متتابعة مستمرة من المؤامرات  
والتجسس والخداع والحرب والتحزب والغدر . والكثير  
من أحاطوا بالباشا أرسلوا إليه ليراقبوا سلوكه ، ويكتبوا  
التقارير عنه ، فكان كل لسان يتمم باللوم ، وكل عين تبحث  
عن خطأ .

وأخيراً وصلت رسائل الاستدعاء ، وحمل الباشا  
مكبلاً بالأصفاد إلى القسطنطينية ، ولم يعد يذكر اسمه  
بعد ذلك .

ثم قال راسلاس لأخته : « ما الذى يجب علينا أن نظنه  
الآن بما تمنحه السلطة من امتيازات ؟ أليس فيها عون للخير ؟  
أو هل الطبقة التابعة وحدها خطرة وصاحبة السلطان آمنة  
ومجيدة ؟ هل السلطان هو الشخص الوحيد السعيد في مملكته  
أو السلطان نفسه خاضع لآلام الشك وإفزع الأعداء ؟ » .

ولم يلبث الباشا الثانى أن خلع ، واغتال الجنود  
الانكشارية السلطان الذى عينه ، وكان لخلفه آراء أخرى  
وأخصاء مختلفون .



## الفصل الخامس والعشرون

### الأميرة تتابع بحثها مجتهدة أكثر منها ناجحة

واندمجت الأميرة أثناء ذلك في كثير من الأسر ، فقد كان هناك قليل من الأبواب لم يجد كرمها - مصحوباً بروح فكاهتها العذبة - طريقه إليها . وكان الكثير من بنات الأسر مليئات حيوية ومرحاً ، غير أن نكايه اعتادات محادثة إملاك وأخياها إلى درجة لم تعد تسر معها بخفة الأطفال وثرثرتهم التي لا معنى لها . فقد وجدت أفكارهن محدودة ، ورغباتهن وضيعة ، وبهجتن غالباً مصطنعة ، ولم يكن من الممكن الاحتفاظ بمسراتهن نقية ، وإن كانت ضئيلة ، بل كانت مشوبة بالمباريات الحقيرة ، والمنافسات التي لا غناء فيها . وكان يغار بعضهن دائماً من جمال بعض ، والجمال صفة لا تستطيع المحاباة أن تضيف إليها شيئاً ، كما لا يستطيع الانقصاص أن يسلبها شيئاً . وكثير منهن كن يعشقن من على شاكلتهن في التفاهة . ويخيل للكثير أنهن عاشقات ، وإن لم يكن في الحقيقة سوى عابثات . ونذر أن يؤسس غرامهن

على الحكمة أو الفضيلة ، ولهذا قلما ينتهى بشيء سوى المشادة  
والحقد . وكان حزنهن كفرجهن على كل حال سريع الزوال .  
ولم يرتبط شيء مما طفا على عقولهن بالماضى أو المستقبل ،  
ولهذا ما أيسر ما فسحت الرغبات الطريق بعضها أمام بعض ،  
كما يمحو الحجر الثانى - وقد ألقى به فى الماء - دوائر  
الحجر الأول .

لقد لعبت مع هؤلاء البنات كما تلعب مع الحيوان  
الأيلىف ، ووجدتهن فخورات بطلعتها برمات بصحبتها .

ولكن كان هدفها أن تتعمق فى اختبارها . وما أيسر  
ما أغرت بشاشتها القلوب التى كانت تفيض حزناً أن تفضى  
إلى أذنّها بأسرارها ، واستعطفها هؤلاء اللاتى طمأنهن الأمل  
وأطربهن الرخاء أن تشاطرنهن سرورهن .

وكانت الأميرة وأخوها يتقابلان عادة مساء فى بيت  
صيفى خاص على ضفة النيل ليقص كل منهما على الآخر  
حوادث اليوم . وبينما كانا يجلسان معاً وقع نظرها على النهر  
الذى جرى أمامها ، ثم قالت : « استجب يا أبا الأنهار  
العظيم ، يامن تفيض فى ثمانين أمة ، لدعاء ابنة ملكك  
الوطنى . خبرنى إن كنت تروى فى طول مجراك ساكناً  
واحداً لا تسمع منه أنين الشكوى » .

قال راسلاس : « لست إذن في البيوت الخاصة بأنجح منى في بلاط القصور » .

قالت الأميرة : « لقد مكنت نفسى منذ اقتسامنا القيام بالملاحظة من أن أتصل اتصالاً وثيقاً بالكثير من الأسر حيث كان يرفرف أبهى مظاهر الرخاء والسلام ، ولا أعرف بيتاً واحداً لم يسكنه ضرب من الجنون لا يدع للهدوء أثراً .

« إننى لم أنشد الدعة بين الفقراء لأننى استنتجت أنه لا يمكن وجودها بينهم . لكننى رأيت كثيراً من الفقراء ظننهم يعيشون فى بسطة من الرزق ، فإن للفقر فى المدن الكبيرة مظاهر مختلفة جداً ، إذ كثيراً ما يحجبه الرنق ، ويخفيه الإسراف . إن قسماً عظيماً جداً من الناس يعنى بأن يحجب فاقتة عن الباقين ، ويقوم أوده بمظاهر مؤقتة ، ويقضى كل يوم فى ابتكار ما يعمل فى غده .

« وهذا على كل حال شر ، ومع أنه شائع بينهم إلا أننى نظرت إليه وأنا أقل تألماً لأننى استطعت أن أجنبهم إياه ، غير أن البعض رفض كرمى ، وكان شعورهم بجرح كرامتهم ، بسبب تسرعى فى كشف حاجاتهم ، أشد من سرورهم باستعدادى لإغاثتهم . ولم يستطع أبداً آخرون — ممن اضطرتهم

الحاجة إلى تقبل عطفي — أن يغفروا لولية نعمتهم . على أن  
كثيرين منهم كانوا صادقين في عرفانهم بالجميل من غير  
مباهاة بشكر أو أمل في أياد أخرى .



## الفصل الثاني والعشرون

### الأميرة تمضي في ملاحظاتها على الحياة الخاصة

بعد أن أدركت نكايه أن أخاها منتبه إليها تابعت قصتها قائلة : « وهناك عادة شقاق في الأسر الفقيرة وغير الفقيرة . وإذا كانت المملكة — كما نخبرنا إملاك — أسرة كبيرة فالأسرة أيضاً مملكة صغيرة ممزقة بالأحزاب ، ومعرضة للثورات . ويتوقع الملاحظ غير الخبير أن حب الآباء والأبناء ثابت ومتعادل ، غير أن هذا العطف قلما يتجاوز سنى الطفولة ، وسرعان ما يصبح الأبناء منافسين للآباء . وإحسان الآباء إلى الأبناء يحط من شأنه التأنيب ، كما أن عرفان الأبناء بجميلهم يفسده الحسد .

« ويندر أن يعمل الآباء والأبناء متفقين ، وكل ابن يجاهد ليستأثر بتقدير أبويه أو أحدهما . والآباء — حتى بلاغراء أقل — يخون بعضهم بعضاً بتنافسهم على الاستئثار بحب الأبناء وتقديرهم . فبعض الأبناء — نتيجة لهذا — يضع ثقته في الأب ، والبعض في الأم ، ويملاً البيت تدريجاً بصنوف الحيل وضروب الشقاق .

« وآراء الأبناء والآباء ، الشباب والشيوخ ، بالطبيعة .

متعارضة نتيجة للتناقض بين آثار الأمل واليأس ، وبين التطلع للمستقبل والخبرة الماضية من غير أن يقع أحدهما في جريمة أو حماقة . وألوان الحياة في الشباب والشيخوخة تبدو مختلفة اختلاف وجه الطبيعة في الربيع والشتاء . فكيف يضمن الأبناء ما يزعمه الآباء وأعيانهم تراه باطلا ؟

« وما أقل الآباء الذين يجعلون حياتهم قدوة صالحة طبقاً للمبادئ التي يدينون بها . والشيخ يثق ثقة تامة في الابتكارات البطيئة والتقدم التدريجي . أما الشباب فإنه يتوقع أن يشق طريقه بالنبوغ والقوة والاندفاع . الشيخ ينظر إلى الثروة ، والشباب يحترم الفضيلة . الشيخ يؤله الحرص ، والشباب يهب نفسه للمروءة ، ويترك مصيره للفرص . الشاب الذي لا يضمم الشر يعتقد في سلامة الطوية فيعمل — على هذا — في صراحة وحسن نية ، ولكن أباه الذي عانى مضار الخداع مدفوع للشك ، ويغلب جداً أن تسحره ممارسته . الشيخوخة يغضبها تهور الشباب ، والشباب يزدري حذر الشيخوخة . وكلما طالت حياة الآباء قل في غالب الأحيان تحابهم . وإذا كان هؤلاء — الذين وحدث بينهم الطبيعة على هذا النحو من القرب — بعضهم لبعض محنة وشقاء فأين نبحث عن الحنو والعزاء ؟ » .

قال الأمير : « طبعاً لا بد أنك كنت سيئة الحظ في .



اختيارك هذا النوع من التعارف . إننى لا أود أن أعتقد أن الضرورة الطبيعية تعوق — على هذا النحو — الآثار المترتبة على أعظم العلاقات حنوًّا .

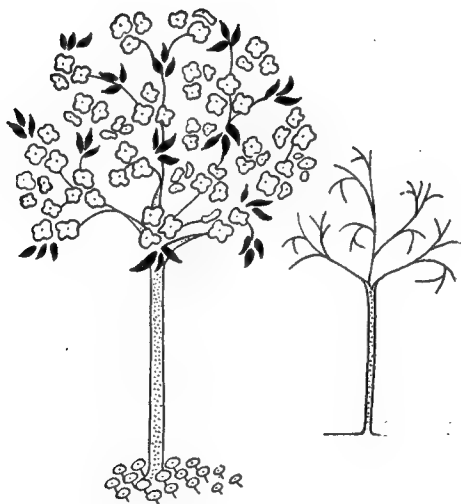
أجابت الأميرة : « ليس النزاع فى الأسرة ضرورياً إلى حد أنه لا يمكن تحاشيه أو الابتعاد عن خطره ، غير أنه ليس من السهل تجنبه . وقلما نرى أسرة بأسرها فاضلة ، والأخبار والأشعار لا يتفقان اتفاقاً تاماً ، والأشعار بعضهم مع بعض أقل مع ذلك اتفاقاً . وقد يختلف الفضلاء فى الرأى أحياناً حينما تنوع فضائلهم وتميل إلى التطرف . وعلى العموم هؤلاء الآباء الذين نالوا الاحترام الأسمى هم الذين يستحقونه لأن من يعيش عيشة راضية لا يمكن أن يكون موضعاً للازدراء .

« وهناك شروط كثيرة أخرى تعكر صفو الحياة ، فبعض الأسر عبيد للخدم الذين عهدوا إليهم بتدبير شئونهم ، والبعض فى قلق دائم بسبب أهواء الأقرباء الأثرياء الذين لا يستطيعون إرضاءهم ولا يجردون على إغضابهم وبعض الأزواج متعطرسون ، وبعض الزوجات شاذات . وعلى الرغم من أنه يندر جداً أن تتسبب حكمة الإنسان أو فضيلته فى إسعاد الكثيرين يغلب أن ينتج عن حماقته أو رذيلته بؤس الجمل الغفير ، ذلك بأن ارتكاب الشر أيسر لنا من فعل الخير .

قال الأمير : « إذا كانت النتيجة العامة للزواج هكذا فاني أظن أنه من الخطر مستقبلاً أن أربط مصلحتي بمصلحة آخر ، وإلا كنت شقياً خطأ شريكى » .

قالت الأميرة : « لقد قابلت كثيراً ممن يعرضون عن الزواج لذلك السبب ، غير أنني لم أجد أبداً في حرصهم ما يحسدون عليه : لقد قضوا حياتهم في أحلام من غير صداقة وبدون عطف ، وهم مدفوعون إلى أن ينقذوا أنفسهم — من اليوم الذى لا وزن له عندهم — بلهو أطفال ومتع تشوبها الرذيلة . إنهم يعملون عمل كائنات يسيطر عليها دائماً الشعور بنقص معلوم لهم فيملاً عقولهم حقداً وضعيفة ، وألسنتهم فحشا ولوما ، فهم مشاغبون في مجالسهم الخاصة سيئوا النية خارجها . وبما أنهم خارجون على الطبيعة البشرية فإنهم يجعلون همهم وسرورهم في إزعاج المجتمع الذى يحرمهم امتيازاته . وليس العيش من غير أن تشعر بالعطف على الغير أو تثير عطف غيرك عليك ، والرخاء من غير أن يضيف إلى سعادة الآخرين ، والضيق من غير أن تذوق طعم الشفقة — ليس كل ذلك سوى حالة أشد حلكة من العزلة . إنها ليست انعزالاً بل لفظ وطرده من المجتمع الإنسانى . فللزواج آلام كثيرة ، لكن الغزوبة ليس فيها مسرات » .

قال راسلاس : « ما الذى يجب عمله إذن ؟ كلما طال  
بحمئنا ضعفت قدرتنا على الحل . ومن المؤكد أن أقرب  
الناس إلى إسعاد نفسه هو ذلك الذى ليست له مآرب  
ولا اعتبارات أخرى » .



## الفصل السابع والعشرون

### بحث في العظمة

توقفت المحادثة هنيئة ، وبعد أن فكر الأمير في ملاحظات أخته أخبرها أنها قد كانت متحاملة في استعراضها للحياة ، وأنها قد ظنت بؤساً ما ليس ببؤس . ثم قال : « إن قصتك تلقى مع ذلك سحابة قائمة على الآمال في المستقبل ، ولم تكن تكهنات إملاك سوى رسم مبدئي للشور التي صورتها نكايه . لقد اقتنعت أخيراً أن راحة البال ليست وليدة العظمة ولا القوة ، وأن الحصول عليها لا يشتري بالثروة ولا يقهر بالغزو . ومن البين أنه كلما عمل الإنسان في دائرة أوسع زاد تعرضه حتماً للمعارضة من الأعداء ، والفشل من فوات الفرصة . ومن كان عليه أن يرضى الكثيرين أو يحكمهم لزمه أن يستخدم الكثير من المساعدين ، وبعضهم شرير ، وبعضهم جاهل ، وسيضله البعض ، ويخونه البعض الآخر . إذا أرضى واحداً أغضب آخر . وسيعتقد هؤلاء الذين لم ينالوا حظوة لديه أنهم هم أنفسهم مغبونون . ولما كانت النعم لا يمكن منحها إلا لعدد قليل كان العدد الأعظم دائماً ساءطاً » .

قالت الأميرة : « إننى آمل أن أعيش دائماً لأحتقر هذا النوع من السخط غير المعقول ، وأن تكون لك القدرة على سحقه » .

فأجاب راسلاس : « ليس السخط دائماً خالياً من السبب فى أعديل إدارات الشؤون العامة وأحرصها . ومهما تكن يقظة الإنسان فإنه لا يستطيع دائماً أن يكشف الجدارة التى قد تخفيها الفاقة ، ومهما تكن قدرته لا يستطيع دائماً أن يوفىها حقها . ومع ذلك كل من يرى من هو أقل منه مفضلاً عليه نسب ذلك التفضيل إلى المحاباة أو الهوى والغرض . ومهما كان الإنسان طيب الأخلاق بفطرته أو سامياً بمركزه فما أضعف الأمل فى أنه يستطيع أن يتمسك بعدالة التوزيع إلى الأبد . إنه يفسح المجال أحياناً لميوله الخاصة ، وأحياناً لأهواء أخصائه . وسيأذن للبعض ممن لا يستطيعون أبداً خدمته أن يجلس منه مجلس الصفى ، ويكشف فى هؤلاء الذين يصطفهم صفاتهم فى الحقيقة منها مجردون ، ويحاول أن يسعد هؤلاء الذين كانوا مصدر سعادته . ألا تسود أحياناً — بناء على هذا — الزكيات التى اشترت بالنقود أو بما هو أشد دماراً أعنى رشوة النفاق والذلة ؟

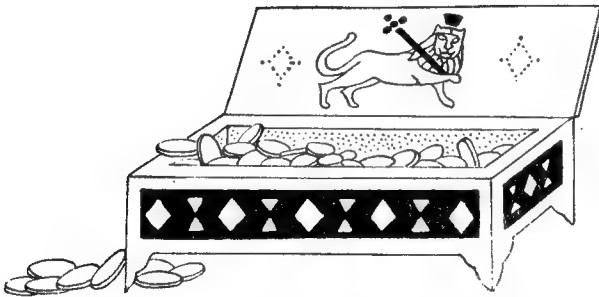
« ومن يعمل كثيراً لا بد أن يخطئ ، ويجب أن يتحمل نتائج ذلك الخطأ . وحتى لو استطاع أن يفعل دائماً صواباً ،

وترك الحكم على سلوكه لعدد عديد من الناس لانه شرارهم وخيارهم ، واعترضوا طريقه بسوء قصد في حالة الأشرار ، وحسن نية في حالة الأخيار .

« فأسمى المناصب لا تستطيع لهذا أن يداعبها الأمل في أن تكون موطناً للسعادة التي اعتقد اعتقاداً جازماً بأنها قد فرت من العروش والقصور إلى مواطن الحلوة المتواضعة للمعوزين ، والغموض الوديع للمطمورين . لأن من تكون مواهبه على قدر أعماله ، ومن يرى بعينه محيط تأثيره كله ، ومن يختار بمعرفته هو من يكون موضعاً لثقته ، ومن لا يطمع أحد في خدعه بالرغبة أو الرهبة — من يكون كذلك لا يستطيع شيء أن يعرقل قناعته ولا أن يعترض طريق آماله . وليس له من العمل سوى أن يحب ويحب ، وأن يكون فاضلاً ، وأن يكون سعيداً » .

قالت نكايه : « لن يهيء هذا العالم أبداً فرصة للحكم على السعادة الكاملة هل يمكن الحصول عليها بالطيبة التامة . غير أن المجمع عليه على الأقل هو أننا لا نجد دائماً سعادة ظاهرة موازية لفضيلة ظاهرة . كل الشرور الطبيعية ، وغالباً كل الشرور السياسية ، تصيب كلا من الشرير والخير ، فإنهما مختلطان في بؤس مجاعة ، وليسا متميزين كثيراً في التعرض لغضب عصابة . إنهما يغرقان معاً في زوبعة ،

ويطردهما الغزاة جميعاً من بلادهما . وكل ما تستطيع الفضيلة  
أن تقدمه هو راحة الضمير ، وأمل ثابت في حالة أسعد ،  
وقد يمكننا هذا من احتمال المصائب بالصبر . لكن لا يعزب  
عن بالك أن الصبر لا بد أن ينطوى على الألم » .



## الفصل الثامن والعشرون

### راسلاس ونكايه يواصلان حديثهما

قال راسلاس : « ياعزيزتى الأميرة إنك تترتكبين الأخطاء الشائعة فى الخطب المليئة بالمبالغة ، وذلك بضربك أمثلة - فى بحث عادى - للنكبات القومية ومناظر الأسى الشامل التى توجد فى الكتب لا فى العالم الواقعى ، والتى هى نادرة بقدر ماهى بشعة . فلنتحاش تحيل الشرور التى لا نحس بها ، ولنتجنب الإضرار بالحياة بسوء تمثيلها . إننى لا أستطيع أن أحتمل البلاغة المتندمة التى تهدد كل مدينة بحصار كحصار بيت المقدس ، وتصور المجاعة كلما حلق الجراد ، وتعلق ظهور الوباء على كل ربيع قوية تهب من الجنوب .

« ومن العبث كل أنواع النزاع حول الشرور التى لا مفر منها ، والتى تغمر الممالك فى آن واحد ، فإذا حدثت وجب احتمالها . ولكن من الواضح أن انفجارات الشدائد العالمية هذه نرهبها أشد مما نحس بها : فهناك الآلاف وعشرات الآلاف يزدهرون فى الشباب ويذبلون فى الشيخوخة من غير أن يعرفوا أى شىء آخر سوى الشرور المتعلقة بالأسرة . إنهم



يسهمون فى نفس المسرات والآلام سواء أكان ملوكهم رحماء أم قساة، وسواء أكانت جحافل بلادهم تطارد أعداءهم أم تتقهقر أمامهم . وبينما القصور قلقة بالمنافسات الداخلية ، والسفراء يتفاوضون فى الممالك الأجنبية لا يزال الحداد يجد بسندانه ، والفلاح يتقدم بمحراثه ، وضرورات الحياة تطلب ويحصل عليها ، والأعمال المتعاقبة التى يقتضيها اختلاف الفصول تستمر لتعمل دوراتها المعتادة .

« فلنكف عن التفكير فيما لا يمكن وقوعه أبداً ، وفيما لو وقع فعلاً لسخر من تقدير الإنسان وتأمله . إننا لن نحاول أن نغير حركات العناصر ، ولا أن نحدد ما قدر للممالك . إن عملنا هو أن نفكر فيما عسى أن تؤديه كائنات مثلنا ، كل يعمل لإسعاد نفسه بتنمية السعادة للآخرين داخل دائرته مهما ضاقت .

« والزواج من غير شك هو من إملاء الطبيعة وفروضها ، فالرجال والنساء خلقوا ليكون بعضهم لبعض قريناً ، ولهذا لا يستطيع أن يصرفنى شيء عن اعتبار الزواج لإحدى وسائل السعادة » .

قالت الأميرة : « إننى لأخشى ألا يكون الزواج سوى شكل من الأشكال التى لا تخصى للبؤس الإنسانى ، وإننى أميل أن أعتقد — مع أشد علماء الأخلاق تمسكاً بمبادئه — بأن

الزواج - مع أنه مسموح به - ليس موضعاً للرضا والتحيز، وأنه ليس هناك من يقحم نفسه في حلف لا يخرج منه ولا حل لمشاكله إلا أن يحدث ذلك بتأثير وجدان مفرط في الانهماك بالملاذ ، وذلك حينما أرى وأقدر الأشكال المتنوعة للشقاء الذى يصحب الحياة الزوجية ، والأسباب المفاجئة للنزاع الدائم ، وتباين الأمزجة والأخلاق ، وتضارب الآراء ، والتصادم اللفظ بين الرغبتين المتناقضتين يستحث كلا منهما دوافع عنيفة ، والمنافسات العنيدة بين شخصين فاضلين متعارضين يؤيد كليهما الشعور بحسن النية » .

فأجاب راسلاس : « أظنك قد نسيت عرضك للعزوبة حتى الآن على أنها حالة أقل سعادة من الزواج . إن كلتا الحالتين سيئة ، ولكن لا يمكن أن تكونا متساويتين في السوء . وحينما تظهر الآراء الخاطئة فإنه يحدث - بناء على هذا - أن يهدم بعضها بعضاً ، وتترك العقل مستعداً لقبول الصواب والحق » .

أجابت الأميرة : « لأننى لم أتوقع أن أسمع بأن ما هو نتيجة للعجز والضعف ينسب للبطلان . وإنه لمن العسير على العقل - كما أنه متعذر للعين - أن يوازن بدقة بين أشياء متسعة المدى متنوعة الأجزاء . وحينما نرى أو ندرك الكل في وقت واحد نستطيع بسهولة أن نلاحظ المميزات ، ونصل

إلى قرار حاسم فى المفاضلة . أما عن نظامين لم يستعرضهما  
بشّر بصورتها الكاملة ، وتعقيداتهما العديدة فلا غرو إن كنت  
أثأثر بهذا تارة وبذاك تارة أخرى ، حسبما يؤثر أحدهما فى  
ذاكرتى أو خيالى ، وذلك ما دمت أحكم على الكل بأجزائه .  
إننا نختلف عن أنفسنا — كما يختلف بعضنا عن بعض  
بالضبط — حينما نرى جانباً فقط من موضوع ما ، كما فى  
العلاقات المتعددة الأشكال فى السياسة والأخلاق ، لكن  
حينما ندرك الكل فى وقت واحد ، كما فى العمليات الحسابية ،  
يتفق الجميع فى الحكم ، ولن يختلف أبداً أحد فى رأيه » .  
قال الأمير : « فلنتجنب أن نضيف مرارة الشقاق إلى  
الشُرور الأخرى فى الحياة ، وأن نحاول منافسة بعضنا البعض  
فى الدقائق الخفية للمناقشة . نحن مشغولان ببحث ، فإما أن  
يتمتع كلانا متعادلين بنجاح ، وإما أن نقاسى نتائج فشله ،  
ولهذا كان من الأصلح أن يساعد أحدهما الآخر . ومما لاريب  
فيه أنك شديدة التسرع فى استنتاجك من البؤس الذى يصاحب  
الحياة الزوجية أن الزواج لا ينبغى أن يقوم . أليس فى بؤس  
الحياة ما يبرهن كذلك على أن الحياة نفسها ليست نعمة من  
نعم السماء ؟ لا بد أن يكون العالم عامراً بالناس : بالزواج  
أو بدونه » .

ردت نكايه قائلة : « إن الطريقة التى يعمر بها العالم بالناس

أمر لا يعنيني ، وليست في حاجة إلى عنايتك . وإنني  
لا أرى خطراً من أن الجيل الحاضر لا يترك خلفاء له  
وراءه . ونحن لا نبحث الآن للعالم بل لأنفسنا » .



## الفصل التاسع والعشرون

### مناظرة الزواج تستمر

قال راسلاس : « إن خير الكل هو نفس الخير لأجزائه ، فإذا كان الزواج خيراً للناس عامة وجب أن يكون من غير تردد خيراً للأفراد وإلا لزم أن يكون الواجب الدائم الضروري سبباً للشر ، وكان لا مفر من التضحية ببعض المصلحة الآخرين . ويظهر من تقديرك للحالتين أن متاعب العزوبة ضرورية ومؤكدة إلى حد كبير ، أما متاعب الحالة الزوجية فعرضية ومن الممكن تجنبها .

« إننى لا أستطيع سوى أن أطمع فى أن التعقل والميل للخير يجعلان الزواج سعيداً ، وأن الحماقة العامة فى البشر هى سر الشكوى الفاشية بينهم . وماذا يتوقع سوى خيبة الأمل والندم على اختيار تم فى عهد الشباب غير الناضج ، فى وقت اشتعال الشهوة من غير فطنة ، ولا بحث عن انسجام الآراء ، وتماثل الأخلاق ، واستقامة التفكير أو نقاء السريرة ؟ » وهذه هى عملية الزواج المعتادة ، يلتقى الشاب والشابة مصادفة أو يحتال للقائهما ، فيتبادلان النظرات والحجاملات ، ثم يذهب كل منهما إلى البيت ويحلم بالآخر . ولما لم يكن لهما

سوى القليل مما يحول انتباههما أو ينوع فكرهما يجدان نفسيهما قلقتين إذا افترقا ، ويستنتجان لهذا أنهما سيكونان سعيدين إذا اجتمعا ، فيزوجان ، ثم يكتشفان ما لم يخفه من قبل سوى العمى الاختيارى ، فيضيقان بالحياة فى شجار وخصام ، ويرميان الطبيعة بالقسوة .

« ومن هذه الزيجات المبكرة يصدر أيضاً التنافس بين الآباء والأبناء ، فالابن تواق للتمتع بالعالم قبل أن يرغب الأب فى هجره . ومن العسير أن يتسع المكان لجيلين فى آن واحد . والبنت تبدأ فى الازدهار قبل أن تستطيع الأم الرضا بالذبول ، ولا تستطيع إحداهما سوى أن ترغب فى اختفاء الأخرى .

« ولا ريب أنه قد تتجنب هذه الشرور بالروية والأناة اللتين تنصح بهما الحكمة فى اختيار غير قابل للفسخ . وللحياة من متع الشباب ومرحها ما فيه الغناء عن مساعدة شريك . وكلما طال الزمن زادت التجارب ، وهى اتساع الأفق فرصاً أفضل للبحث والاختيار . وفى الزواج غير المبكر ميزة على الأقل محققة : وهى أنه يظهر فيه فرق السن بين الآباء والأبناء بصورة أوضح » .

قالت نكايه : « إن ما لم يستطع عقلنا أن يجمعه ، وما لم تلقنه خبرتنا بعد لا يمكن معرفته إلا من أفواه الآخرين .

لقد أنبئت أن الزيجات المتأخرة لا تمتاز بالسعادة ، وهذا أمر لا ينبغي إهماله لبلوغه من الأهمية غايتها ، وكثيراً ما عرضته على هؤلاء الذين لهم من دقة ملاحظتهم ومعرفتهم الجامعة ما جعل موافقتهم عليه جديرة بالاعتبار . ولقد جزم أغلبهم بأن من الخطر للرجل والمرأة أن يعلق أحدهما مصيره على الآخر في وقت تحددت فيه الآراء ، وثبتت العادات ، وارتبط كل منهما برباط الصداقة مع الغير ، في وقت اتخذت فيه حياة كل منهما منهجاً محدوداً ، وتمتع العقل طويلاً بالتأمل في أفكاره .

« ومن النادر أن يوجه اثنان يجوبان العالم مصادفة إلى نفس الطريق ، وقلياً يحدث أن يترك أحدهما الطريق الذي زينته له العادة . فإذا استقرت خفة الشباب المستهترة وانتظمت فسرعان ما تخلفها الكبرياء التي تخجل من التسليم ، والعناد الذي يطرب للمقاومة والنزاع . ومع أن التقدير المتبادل ينتج رغبة متبادلة في إسعاد كل منهما الآخر غير أن الوقت نفسه — كما يغير المظاهر الخارجية بدون استثناء — يحدد كذلك اتجاه الوجدانات ، ويضفي على الأخلاق صلابة لا تقبل المرونة . وكلما طال تعودنا للشيء صعبت مخالفته . ومن يحاول أن يغير مجرى حياته يغلب جداً أن تذهب محاولته هباء . فكيف نعمل للآخرين ما ينذر أن نستطيع عمله لأنفسنا ؟ » .

فقاطعها الأمير : « إنك لاريب تفترضين أن الباعث

الرئيسى على الاختيار قد نسى أو أهمل . إننى حينما أبحث عن زوج سيكون أول همى أن أتأكد من استعدادها للسير حسب الحكمة والعقل . »

قالت نكايه : « وهكذا يخدع الفلاسفة . إن هناك ألفاً من أنواع الشقاق المعتادة لن يستطيع أن يحسمها العقل ، وهناك مشاكل يتحاشاها الفحص والاستقصاء ، وتجعل من المنطق سخرية ، وهناك حالات تتطلب سرعة الإنجاز والإقلال من النقاش . تدبر حال الناس ، وانظر إلى أى حد من القلة بلغ هؤلاء الذين تفترض فيهم القدرة على العمل فى أى ظرف حقير أو خطير وأسباب العمل ماثلة فى أذهانهم . فما أشقى الزوجين وما أتعسهما إذا قضى عليهما أن يرتبا حسب العقل والحكمة كل التفاصيل الدقيقة ليوم من أيام الأسرة . »

« وإن هؤلاء الذين يتزوجون فى سن متقدمة قد ينجون من مضايقات أبنائهم ، ولكن يقلل من هذه المزية أنهم قد يتركونهم جهلة وعجزة تحت رحمة وصى أو - إذا لم يحدث هذا - قد يخرجون من العالم قبل أن يروا أحب الناس إليهم حكماً أو عظماء . »

« وإذا كان خوفهم من أبنائهم قد قل فإن أملهم فيهم قد قل أيضاً ، وفقدوا من غير مقابل متع الحب



المبكر ، وفرصة الاتصال بأخلاق قابلة للتشكيل وعقول مستعدة لآثار جديدة ، وهذان الأمران قد يقضيان بالعشرة الطويلة على أوجه الخلاف بينهما ، كما أن الأجسام اللدنة تتلاءم — بدوام الاحتكاك — سطوح بعضها مع بعض .

« وأنا أعتقد أن هؤلاء الذين يتزوجون في سن متقدمة يسرون أكثر بأبنائهم ، وهؤلاء الذين يتزوجون في سن مبكرة يتمتعون أكثر بشركائهم » .

قال راسلاس : « إن اتحاد هذين الحبين قد يحقق كل الرغبات ، وقد يكون هناك وقت يوحد بينهما فيه الزواج ، وقت لاهو مبكر جداً بالنسبة لأب ، ولاهو متأخر جداً بالنسبة لزوج » .

فأجابت الأميرة : « إن كل ساعة تمر تؤيد انخيازي إلى الموقف الذي كثيراً ما عبر عنه إملاك : وهو أن الطبيعة تضع منحها على اليد اليمنى واليد اليسرى . وهذه الحالات — التي تقوى الأمل وتجذب الرغبة — مكونة بحيث إذا اقتربنا من واحدة ابتعدنا عن أخرى . فهناك نوعان متضاربان من الخير لانستطيع أن نستولى عليهما معا ، لكن لو تغالينا في التعقل لمررنا بينهما على مسافة طويلة لتمكننا من الوصول لأحدهما . وكثيراً ما تكون هذه نهاية التفكير الطويل ، فإن من يحاول أن يفعل ما هو فوق مقدور

البشر لا يفعل شيئاً . فلا تخدع نفسك بملاذ متناقضة ،  
واختر من النعم الماثلة أمامك ، وكن قانعاً . فما من إنسان  
يستطيع أن يذوق فاكهة الحريف بينما يتمتع أنفه بأزهار  
الربيع ، وما من أحد يستطيع أن يملأ كوبه من منبع النيل  
ومصبه في آن واحد . »



## الفصل الثالثون

### إملاك يدخل ويغير الحديث

وهنا دخل إملاك وقاطعهما ، وقال راسلاس :  
« إملاك ! لقد كنت أتلقي من الأميرة التاريخ المظلم  
للحياة الخاصة ، وأنا شبه يائس من الاستمرار في البحث » .  
قال إملاك : « يخيّل إلى أنه أثناء اختياركما طريق  
الحياة تهملان الحياة نفسها . إنكما تقصران تنقلكما على  
مدينة واحدة وهى مهما اتسعت أو تنوعت لا تستطيع أن  
تقدم الآن سوى طرائف قليلة ، وتنسيان أنكما فى مملكة  
شهيرة بين أقدم الأسر الملكية ببأس سكانها وحكمتهم ،  
مملكة أشرقت فيها أول ما أشرقت العلوم التى أنارت العالم ،  
ولا نستطيع أن نتبع قبلها فنون المجتمع المتحضر وفنون  
الحياة فى الأسرة .

« لقد خلف قدامى المصريين آثاراً للعمل المصنّى والسلطنة  
الجبارة يقر الجميع بأن عظمة أوروبا كلها تتضاءل أمامها .  
وإن خرائب فنونهم فى العمارة مدارس البنائين المحدثين .  
وقد نستطيع أن نخمن بوجه التقريب من البقايا التى أبقى  
عليها الدهر عظمة ما دمره من عجائبهم » .

قال راسلاس : « إن استطلاعى لا يعنى عناية كبيرة بأن أعاين أكوام الأحجار أو أفحص تلال الأثرية . إن عملى مع الإنسان نفسه . لقد بحثت إلى هنا لا لأقيس أجزاء المعابد ، ولا لأتتبع مجارى العيون التى سدت على مر الزمن ، بل لألقى نظرة على المناظر المتنوعة للعالم الحاضر » .

وقالت الأميرة : « إن الأشياء التى أمامنا الآن تتطلب الانتباه وتستحقه ، فإذا نفعل بأبطال العصور القديمة وآثارها ؟ وماذا نفعل بأزمة لا يمكن أبدا أن تعود ، وبأبطال كان أسلوب حياتهم مختلفاً عن كل ما تقتضيه أو تسمح به الحالة الراهنة للعالم الإنسانى ؟ » .

فرد الشاعر : « لكى نعرف أى شىء يجب أن نعرف آثاره ، ولكى نرى الناس يجب أن نرى أعمالهم لعلنا نتعلم منها ما أملاه العقل ، أو ما أغرى به الوجدان ، ونكشف أقوى البواعث على العمل . والحكم الصحيح على الحاضر يلزمنا بمقابلته بالماضى لأن الأحكام كلها نسبية . وأما عن المستقبل فلا يمكن أن يعرف أى شىء . والحقيقة أنه ليس هناك عقل يشغل كثيراً بالحاضر : فالذكريات والآمال تملأ نقدياً كل لحظتنا . ووجداناتنا

هى الفرح والحزن والحب والكراهة والأمل والخوف . أما الفرح والحزن ففيدانهما الماضى ، وميدان الأمل والخوف المستقبل ، وحتى الحب والكراهة لا يتجاهلان الماضى لأن السبب يجب أن يوجد قبل المسبب .

« فالحالة الراهنة للأشياء هى نتيجة لحالة سابقة . وإنه لمن الطبيعى أن نبحث عن مصادر الخير الذى نتمتع به أو الشر الذى نقاسيه . فإذا عملنا من أجل أنفسنا فقط فليس من الحكمة أن نهمل دراسة التاريخ ، وليس ذلك من العدل إذا عهد إلينا أن نغنى بالآخرين . والجهل حينما يكون بإرادة الإنسان جريمة . وقد يتهم بالشر من رفض أن يتعلم كيف يتحاشاه . »

« وليس هناك جزء من التاريخ أعم نفعاً من ذلك الذى يعرض لتقدم العقل البشرى ، والتحسين التدريجى فى التفكير ، والنمو المطرد فى العلوم ، وتعاقب العلم والجهل ، وهما نور الكائنات المفكرة وظلامها ، وانقراض الفنون وإحيائها ، وثورات الحياة العقلية . وإذا كانت أخبار المواقع والفتوح من أخص شئون الأمراء فإن الفنون النافعة أو الجميلة لا ينبغى إغفالها ، لأن هؤلاء الذين لهم ممالك عليهم أن يحكموها لهم كذلك عقول يجب أن يغذوها ويتموها . »

« والمثال دائماً أشد تأثيراً من المبدأ : فالجندى يتكون في الحرب ، والنقاش يجب أن ينسخ صوراً لغيره من النقاشين . وتمتاز الحياة النظرية بهذه الحقيقة ، وهى أن الأعمال العظيمة تندر روئيتها . أما أعمال الفن فهى دائماً فى متناول اليد بالنسبة لمن يريد أن يعرف ماذا استطاع الفن أن ينجز .

« وحينما تصدم العين أو الخيال بعمل غير عادى فالانتقال التالى للعقل الموجب هو إلى الوسائل التى بها قد أنجز .  
« وهنا تبدأ فائدة هذا التأمل والنظر ، فنوسع مداركنا بأفكار جديدة ، وربما نسترد بعض الفنون التى فقدناها الإنسان ، أو نتعلم ما عرف فى بلادنا معرفة أقل إحكاماً ، ونقابل على الأقل ما لنا بما للأزمنة القديمة ، فلما أن نبتج لتقدمنا ، وإما أن نقف على عيوبنا ، وهذه هى الخطوة الأولى نحو المصلحة والخير » .

قال راسلاس : « أنا مستعد لرؤية كل ما هو جدير ببحثى واطلاعى » .

وقالت الأميرة : « وأنا سيهجنى أن أتعلم شيئاً من أساليب القدماء » .

وقال إملاك : « إن أجل الآثار التى تبعث على المباهاة والفخر بالعظمة المصرية ، وأضحى عمل من أعمال الصناعة

اليديوية هو الأهرام . لقد أقيمت عمائر في عصر ما قبل التاريخ تقدم لنا عنها أقدم الروايات أحاديث غير مقطوع بصحتها ، وأعظمها لا يزال قائماً لم ينل منه الزمن إلا قليلاً جداً » .

قالت نكايه : « فلنزرها غداً . لقد سمعت كثيراً عن الأهرام ، ولن يهدأ لي بال حتى أراها من الداخل والخارج بعيني رأسي » .



## الفصل الواحد والثلاثون

### يزورون الأهرام

ولما كان هذا قرارهم توجهوا في اليوم التالي ، ووضعوا الخيام فوق الجبال لأنهم قرروا أن يبقوا بين الأهرام حتى يتم إشباع استطلاعهم . فرحلوا متأنين في رحيلهم ، والتفتوا إلى كل شيء جدير بالملاحظة ، ووقفوا من حين لآخر متحدثين إلى السكان ، ولاحظوا المظاهر المتنوعة للمدن الحربة والمعمورة ، وللطبيعة الجرداء والمزروعة .

وحينما وصلوا إلى الهرم الأكبر دهشوا لعظم اتساع القاعدة وشدة ارتفاع القمة . وأوضح إملاك الأسس التي اختير عليها الشكل الهرمي لعماره قصد بها أن تطاول الزمن بقاء ، وأراهم أن النقص التدريجي في حجم الهرم كلما تسلقنا إلى القمة قد أكسبه رسوخاً لم يقو عليه جميع ما اعتادت عناصر الطبيعة أن تنزل من ضربات قاصمة متتابعة شاملة . ويصعب أن تستطيع الزلازل نفسها تدميره رغم أنها مظهر لعنف الطبيعة تشق مقاومته . وإن الزلزلة التي تستطيع أن تعصف بالهرم لتستطيع أن تهدد القارة بالفناء والانحلال . فقاوسوا أبعاد الأهرام جميعها ، وضربوا خيامهم بأسفل



سفحها . وفي اليوم التالى استعدوا لدخول الحجر الداخلية .  
وبعد أن استأجروا المرشدين المعتادين تسلقوا حتى وصلوا  
إلى الممر الأول . وحينما نظرت وصيفة الأميرة إلى الهوة  
تراجعت مرتعدة فقالت الأميرة : « بكواه مم تخافين ؟ » .  
فأجابت السيدة : « من المدخل الضيق والظلمة المرعبة . لأننى  
لا أجرؤ على أن أدخل مكاناً مسكوناً لا محالة بأرواح قلقة ،  
وإن الملاك الأصليين لهذه الأقبية المفزعة سيمشّطون أمامنا ،  
وربما أغلقوا علينا الأبواب إلى الأبد » . تكلمت ثم طوقت  
جيد سيدتها بذراعها .

قال الأمير : « إن كان كل خوفك من الأشباح فأنا  
أعدك بأنك ستكونين آمنة . فليس هناك خطر من الموتى .  
ومن دفن مرة لا يمكن أن يرى مرة أخرى » .  
فقال إملاك : « أما أن الموتى لا يرون ثانية فذلك

مالا أستطيع الجزم به أمام الأدلة المجمع عليها فى جميع  
العصور وكل الأمم : إذ ليس هناك شعب من البدائيين أو  
المتحضرين لم يعتقد فى أشباح الموتى ، وتتناقل أخبارها بين  
أفرادها . وهذا الرأى الذى ينتشر انتشار الطبيعة الإنسانية  
لا يمكن أن يكسب عموميته إلا لأنه حق . أما هؤلاء الذين  
لم يتصلوا بالعالم فلا ينتظر أن يسلموا بقصة التجربة وحدها  
كفيلة بتأييدها . وأما أن بعض المكابرين يشكون فى أمرها

فلا يستطيع أن يضعف من البرهان الإجماعى إلا قليلا .  
وبعض هؤلاء ينكرونها بالسنتهم ويقولونها بقلوبهم .

« وأنا لا أقصد مع ذلك أن أضيف مخاوف أخرى إلى  
ما قد استولى على بكواه فعلا من مخاوف . ولا يمكن أن  
يكون هناك سبب لسكنى هذه الأشباح الأهرام أكثر من  
الأماكن الأخرى ، أو لأن لهم القدرة أو الرغبة في إيذاء  
الأبرياء الأطهار . ولم يكن دخولنا افتئاتاً على امتيازاتهم ،  
ولا اعتداء على حقوقهم . ولم يكن فى استطاعتنا أن نسلبهم  
شيئاً ، فكيف نستطيع أن نغضبهم ؟ » .

قالت الأميرة : « يا عزيزتى بكواه سأتقدمك دائماً ،  
وسيتبعك إملاك ، ولا تنسى أنك رفيقة أميرة الحبشة » .

فأجابت السيدة : « إن كان يرضى الأميرة أن تموت  
خادمتها فليكن أمرها موتاً أقل رعباً من السجن فى هذا  
الكهف الخيف . إنك تعلمين أنى لا أجروء على عصيانك ،  
وأنى لا بد أن أذهب إذا أمرتنى ، ولكن إن دخلت مرة  
فلن أعود ثانية » .

رأت الأميرة أن خوفها قد بلغ حداً لا يجدى معه  
النصح أو التوبيخ . وبعد أن عانقتها أمرتها أن تبقى فى الخيمة  
حتى عودتهم . ولم تقنع بهذا مع ذلك بكواه بل توسلت إلى  
الأميرة ألا تستمر فى تحقيق غرض مرعب كهذا الذى

تقصد إليه من دخول زوايا الهرم وخفاياه . ثم قالت نكايه :  
« مع أنني لا أستطيع أن أعلم الشجاعة لا ينبغي أن أتعلم  
الجبين ، أو أن أترك في النهاية ما جئت إلى هنا خاصة لعمله  
غير معمول » .



## الفصل الثاني والثلاثون

### يدخلون الهرم

نزلت بكواه إلى الخيام ، ودخل الباقون الهرم ، ومروا بطريق الأروقة ، وعاینوا أقبية الرخام ، وفحصوا التابوت الذى كان مفروضاً أن تودع فيه مومياء مؤسس الهرم ، ثم جلسوا فى إحدى الغرف الرحبة ليستريحوا قليلاً قبل أن يحاولوا العودة .

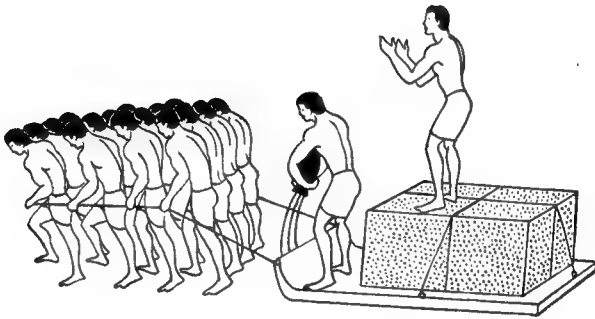
قال إملاك : « لقد أشبعنا الآن عقولنا بفحص دقيق لأجل عمل من أعمال الإنسان إذا استثنينا سور الصين العظيم .

» أما من ناحية السور فإنه من اليسير جداً أن نحدد الباعث على إقامته ، فقد حمى أمة ثرية رعديدة من غزو البرابرة الذين يسر لهم تأخيرهم فى الفنون أن يسدوا حاجاتهم بالسلب لا بالعمل ، والذين انقضوا على أصحاب المتاجر الآمنة انقضاخ النسر على الطيور المستأنسة . فقد جمعت سرعتهم الخاطفة وتوحشهم السور ضرورياً ، كما جعله جهلهم فعالا

« وأما عن الأهرام فلم يعط سبب كاف للنفقات الفادحة والجهد المضنى في العمل . وإن ضيق الغرف ليبرهن على أنها لا تصلح ملجأ من الأعداء . وقد كان من المحتمل أن تودع الكنوز مع نفس الحماية والأمان بنفقات أقل كثيراً . وبخيل إلى أنها لم تؤسس إلا استجابة لنهم الخيال الذى يفترس دائماً الحياة ، والذى يجب أن تسكن ثورته دائماً بنوع من أنواع العمل . فهوؤلاء الذين اجتمع لهم كل ما يمكن أن يتمتعوا به لا بد أن يضاعفوا رغباتهم : ومن بنى للحاجة حتى أشبع حاجته لا بد أن يبدأ البناء لمجرد التظاهر ، ويمد خطته إلى أقصى ما يستطيع حتى لا يكون هناك في المستقبل القريب مجال لظهور رغبة أخرى .

« وإني لأعتبر هذا البناء الجبار تذكاراً لعجز المتع الإنسانية مهما كثرت عن أن تسد حاجات الإنسان . فالملك الذى لا حد لسلطانه ، والذى تزيد كنوزه على كل الحاجات الحقيقية والمتخيلة يضطر إلى أن يرفه عن سلطته المشبعة أكثر من الحاجة ، ومتعه المسممة المملة على كثرتها بإقامة هرم . ولا بد أن يروح عن نفسه ليزيل سأم الحياة المتدهورة المضمحلة برويته الآلاف تكدح من غير نهاية والأحجار يصف بعضها فوق بعض صفلاً لا هدف له .

فيامن لا تقنع بحال معتدلة ، وتتخيل السعادة في العظمة  
الملكية ، وتحلم بأن السلطة أو الثروة تستطيع أن تشبع دائماً  
نهم النفس إلى الطرافة والتجديد ، تأمل الأهرام واعترف  
بضلالك .



## الفصل الثالث والثلاثون

### الاميرة يصادفها سوء حظ

نهضوا وعادوا مجتازين الهوة التي دخلوا منها ، وأعدت  
الأميرة لوصيفتها قصة طويلة عن سراديب ضيقة وحجر غنية  
بالأثاث ، وعن الآثار المختلفة التي تركها تنوع الطريق  
في نفسها ، لكن حينما وصلوا إلى حاشيتهم وجدوا الجميع  
صامتين وحزاني . وكان يبدو على وجوه الرجال الشعور  
بالخزي والخوف ، كما كانت النساء يبكين في الخيام .

ولم يحاولوا أن يتكهنوا بما حدث ، بل سألوا في الحال  
فأجابت إحدى الجواري : « ما كدتم تدخلون الهرم حتى  
انقض علينا جماعة من الأعزاب . وكنا من القلة بحيث  
لا نستطيع المقاومة ، ومن البطء بحيث لا نستطيع الهرب .  
وما كادوا يفتشون الخيام ، ويحملوننا على جمالنا ، ويدفعوننا  
أمامهم حتى ألجأهم اقتراب بعض الفرسان من الأتراك إلى  
الفرار ، غير أنهم قبضوا على السيدة بكواه وجاريتها ،  
وحملوهن معهم ، ولا يزال الأتراك - بفضل توسلاتنا  
واستحثاتنا - يطاردونهم ، غير أنني أخشى أنهم لن يستطيعوا  
التغلب عليهم » .

أنهكت الدهشة والحزن الأميرة . وكانت الشرارة الأولى  
في غضب راسلاس أن أمر خدمه أن يتبعوه ، وتأهب ليقفنى

أثر اللصوص والسيوف في يده . فقال إملأك : « سيدي ما قيمة العنف ، وما فائدة البسالة ؟ فالأعراب يمتطون جياداً مدربة على الكر والفر ، وليس لنا من أنواع الحيوان سوى حملة الأثقال . وإذا تركنا مستقرنا الحاضر ربما فقدنا الأميرة ولم نستطع أن نأمل في إعادة بكواه » .

عاد الأتراك - ولم تمض فترة طويلة - بعد أن يئسوا من اللحاق بالعدو ، فانفجرت الأميرة ثانية بالرناء والبكاء ، وكان من العسير على راسلاس أن يمنع نفسه من رمي الأتراك بالجن . غير أن إملأك كان يرى أن فرار الأعراب لم يزد هم سوء طالع ، إذ ربما فضل الأعراب قتل أسراهم على التخلي عنهم .





## الفصل الرابع والثلاثون

### يعودون إلى القاهرة من غير بكواه

لم يكن هناك أمل من إطالة الإقامة ، فعادوا إلى القاهرة نادمين على استطلاعهم ، ولأئمن الحكومة لإهمالها ، وناعين تسرعهم الذي كان من نتيجته أن أهملوا الحصول على حرس ، ومتخيلين وسائل كثيرة كان من المحتمل أن يتجنب بها فقد بكواه ، ومقررين عمل شيء لإعادتها ، ولو أنه لم يعثر أحد منهم على ما ينبغي عمله .

وأوت نكايه إلى مخدعها حيث حاولت جارياتها أن يواسينها بإخبارهن إياها أنه كان لهن جميعاً متاعب ، وأن السيدة بكواه كانت قد تمتعت بالكثير من السعادة في الحياة زمناً طويلاً ، وقد يكون من المعقول أنها كانت تتوقع تغييراً للحظ ، وأن أملهن أن يصيبها خير أينما حلت ، وأن سيدتهن ستجد صديقة أخرى تحل محلها .

فلم تجبن الأميرة ، وواصلن أسلوبهن في المواساة غير حزنات بقلوبهن على فقد الوصيفة .

وفي اليوم التالي قدم الأمير للبasha مذكرة بما قاساه من

اعتداء الأعراب ، ولتمسأ لرفع الظلم . فهدد الباشا بعقاب اللصوص ، وإن كان لم يحاول القبض عليهم ، كما أنه لم يُستطع في الحقيقة أن تقدم إيضاحات ولا أوصاف قد يوجه الباشا على أساسها مطاردتهم .

وسرعان ما ظهر أن السلطات لا تعمل شيئاً . ولما كان الحكام قد ألفوا أن يسمعو بجرائم فوق ما يستطيعون العقاب عليه ، وبآثام أكثر مما يستطيعون الاقتصاص من أصحابها أراحوا أنفسهم مهملين جميع الحالات من غير تمييز ، ونسوا الطلب بمجرد أن يغيب الطالب عن أنظارهم .

وحاول إهلاك أن يقف على بعض المعلومات عن طريق مندوبين خاصين . فقد وجد كثيراً ممن تظاهروا بالمعرفة الدقيقة لكل مواطن الأعراب ، والاتصال المنتظم بروؤسائهم ، وكانوا على استعداد للتعهد بإعادة بكواه . وبعض هؤلاء زودوا بالمال لرحيلهم ، غير أنهم لم يعودوا أبداً . والبعض منح بسخاء على أخبار تبين بعد أيام قليلة أنها مختلقة . ولكن الأميرة لم تسمح بترك أية وسيلة — مهما كانت بعيدة الاحتمال — من غير أن تجربها ، لأنها كلما كانت تعمل شيئاً كانت تبعث الحياة في أملها . فإذا أخفقت وسيلة اقترحت أخرى . وإذا عاد رسول غير موفق في رسالته أرسل آخر إلى مكان مختلف .

وكان قد انقضى حينئذ شهران لم يسمع فيهما شئ عن بكواه ، فأخذت الآمال التي حاول كل منهم أن يعلقها على الآخرين تتباطأ وتضعف . ولما رأت الأميرة أنه قد أعيتهم المحاولة والحيلة استغرقت في حزن لا أمل منه ولا سلوى فيه ، وأثبتت نفسها ألف مرة على إذعانها السهل بسماحها لوصيفتها أن تمكث بعيدة عنها ، وقالت : « لولم يتغلب حبي لها على سلطتي عليها ما جرؤت بكواه على التكلم عن مخاوفها . كان ينبغي أن تهابني أكثر مما تخاف الأشباح . ورب نظرة عابسة كانت تغلبها على أمرها . ورب أمر حازم كان يحملها على الطاعة فلماذا استولى على تدليلي الأحمق ؟ لماذا لم أتكلم وأرفض أن أستمع ؟ » .

قال إملاك : « أيتها الأميرة العظيمة لا تؤنبي نفسك على فضيلة فيك ، أو لا تعتبرى ذلك الذي نتج عنه الشر عرضاً أمراً يلام عليه . إن عطفك على بكواه لفرعها كان كريماً وشفيقاً . وحينما نعمل حسبما يقتضيه واجبنا نسلم أمر النتيجة إلى من تتحكم في أعمالنا قوانينه ، ومن لا يجيز لأحد أن يعاقب في النهاية على الطاعة ، وحينما نخرج على القواعد التي وضعت لنا لخير طبيعي أو خلقى ننحرف عن اتجاه الحكمة العليا ، ونتحمل نحن أنفسنا

العواقب . وإن الإنسان لا يستطيع إلى الآن أن يعرف العلاقة بين الأسباب والنتائج : فقد يجرؤ على ارتكاب الخطأ ليصل من وراء ذلك إلى الصواب . وحينما نواصل السعى لهدفنا بوسائل مشروعة نستطيع بعد ذلك أن نخفف دائماً وقع فشلنا بالأمل في عوض مستقبل . ولكن حينما نستوحى سياستنا الخاصة فقط ، ونحاول أن نجد طريقاً أقرب إلى الخير بتجاوز الحدود المقررة بين الخطأ والصواب لا نستطيع أن نكون سعداء حتى مع التوفيق في سعينا ، لأننا لن نستطيع أن نفلت من الشعور بخطئنا . أما إن خاب مسعانا فلا شفاء من مرارة الخيبة . ما أقسى قلق الحزين الذي يجمع في آن واحد بين آلام الإثم وضيق المصيبة التي جرّها عليه إثمه !

« تصوّري أيتها الأميرة ماذا كانت تكون حالك لو أن السيدة بكواه توسلت إليك أن تصحبك ، وأجبرتها على البقاء في الحيام ، ثم اختطففت . أو كيف كنت تتحملين الهم والفكر لو أنك أجبرتها على الدخول في الهرم ، ثم ماتت أمامك من آلام الرعب والفرع ؟ » .

قالت نكايه : « لو حدثت إحداهما ما استطعت أن احتمل الحياة حتى الآن ، ولعذبت إلى حد الجنون

بتذكرى مثل هذه القسوة ، أو لذبت مقتاً وكرهية  
لنفسى » .

فقال إملأك : « هذه على الأقل هى الجائزة الراهنة  
للسلوك الفاضل ، وهى أنه ليست هناك عاقبة سيئة تستطيع  
أن تحملنا على الندم » .



## الفصل الخامس والثلاثون

### الأميرة يضئها فقد ها لبكواه

وبعد أن رجعت نكايه إلى نفسها وجدت أنه ليس هناك شر لا يمكن احتماله سوى ذلك الذى يصحبه الشعور بالخطيئة . وتحررت منذ ذلك الحين من عنف الحزن العاصف ، واستغرقت فى هم ضامت وسكون يغمره غم وكدره ، وجلست من الصباح إلى المساء تتذكر كل ما عملته أو قالته بكواه وصيفتها ، وصانت كل صغيرة كان لها بالمصادفة قيمة فى نظر بكواه لعلها تثير فى نفسها ذكرى حادثة بسيطة أو حديثاً غير ذى بال . وكانت تحتزن فى ذاكرتها أفكار من لا تتوقع فى ذلك الوقت أن تراها ثانية على أنها قوانين وقواعد للحياة . ولم تهدف من تأملها إلى أية غاية سوى أن تتكهن فى كل مناسبة بما عساه أن يكون رأى بكواه ونصيحتها .

ولم تعرف وصيفاتها شيئاً عن منزلها الحقيقية ، لذلك لم تستطع أن تكلمهن إلا بحذر وحيطة . وبدأت تتخلى عن استطلاعها لأنه لم تكن لها عناية كبيرة بجمع أفكار لا تجد من المناسب التعبير عنها . وحاول راسلاس أولاً أن يغريها ، وأن يسليها بعد ذلك . فاستأجر عازفين تظاهرت بالاستماع إليهم

وإن كانت لم تسمعهم . وحصل على أساتذة من الفنانين  
ليعلموها شتى الفنون ، فكانت محاضراتهم لا بد أن تعاد في  
الزيارات التالية . وفقدت تذوقها للمتعة ، وطموحها للسبق  
والتفوق ، ومع أن ذهنها كان يحول جولات قصيرة بعيدة  
عن ميدان آلامها كان يعود دائماً إلى تخيل صورة صديقها .  
وكان إملأك يؤمر كل صباح أن يهتم بتجديد بحثه ،  
ويسأل كل مساء عن بكواه هل سمع شيئاً عنها بعد حتى  
قلت رغبته في المثول بين يدي الأميرة ، وذلك بعد أن عجز  
عن إجابتها إلى ما طلبت . فلاحظت تأخره وأمرته بالحضور ،  
وقالت : « لا ينبغي أن تخلط بين الجزع وعدم الرضا بالحالة  
الراهنة ، أو أن تظن أنني أهتمك بالإهمال لأنني أتدمر من  
عدم توفيقك . إنني لا أعجب كثيراً لغيابك ، وأعلم أن صحبة  
الشقي لا تكون أبداً سارة ، وأن الجميع يتجنبون بالفطرة  
عدوى البؤس والشقاء . فلاستماع إلى الشكاوى مضمّن لكل من  
الشقي والسعيد . فن ذا الذي يحجب بحزن عارض ومضات  
البهجة القصيرة التي تأذن لنا بها الحياة ؟ أو من ذا الذي  
يكافح شرور نفسه ويضيف إليها في آن واحد ألوان البؤس  
التي يشقى بها آخر ؟ »

« لقد دنا الوقت التي لم يعد أحد ينزعج فيه بتأوهات  
نكايه . ولقد انتهى الآن بحثي عن السعادة . وقررت أن

أعزل العالم بكل ما فيه من مدهانات وخدع ، وسأحجب  
نفسى فى منعزل من غير أن أعنى بشىء سوى بتأليف أفكارى ،  
وتنظيم ساعاتى بأعمال بريئة متعاقبة مستمرة إلى أن أدخل -  
بعقل مجرد من الرغبات المادية - حالة يسرع إليها الجميع ،  
وأمل أن أتمتع فيها ثانية بصداقة بكواه .

قال إملاك : « لا تعقدى تفكيرك بتصميمات لا يمكن  
الرجوع فيها ، ولا تزيدى عبء الحياة ثقلاً بتجميعك ألوان  
البؤس بإرادتك ، فإن متاعب العزلة ستستمر أو تزيد حينما  
ينسى فقد بكواه . وإن حرمانك من متعة ليس سبباً وجيهاً  
لرفضك سائر المتع » .

قالت الأميرة : « ليس لى منذ أخذت منى بكواه متعة  
أرفضها أو أتمسك بها ، ومن ليس لها أحد تحبه أو تثق فيه  
ليس لها إلا قليل من الأمل ، فإنه يعوزها أول شرط أساسى  
للسعادة . وقد يصح لنا أن نقول إن ما تستطيع هذه الحياة  
أن تقدمه من قناعة لا بد أن ينشأ من الجمع بين الثروة والمعرفة  
والخير . والثروة لا شىء إلا إذا منحت . والمعرفة لا قيمة لها إلا إذا  
تنوقلت ، ولهذا يجب منحهما للغير ، فلمن أستطيع أن أمنحهما  
الآن ابتغاء سعادتى ومرضاى ؟ وأما الخير فإنه يقدم لنا السلوى  
الوحيدة التى لا يحتاج التمتع بها إلى شريك ، إذ من الممكن  
أن يتحقق الخير فى المنعزل » .



فأجاب إملأك : « إننى لن أجادل الآن فى مدى ما تسمح به العزلة من الخير ، وإلى أى حد تهى ظروفها تنميته . تذكرى اعتراف الزاهد التقى ، وستحزن للعودة إلى العالم حينما تغادر صورة رفيقتك ذهنك » .

قالت نكايه : « لن يأتى ذلك الوقت . إننى سأفتقد دائماً فى بكواه العزيزة صراحتها الكريمة ، وخضوعها المصحوب بالحياء ، والثقة بها فى المحافظة على السر ، وذلك كلما طالت بى الحياة لأرى فيها الرذيلة والحماقة » .

قال إملأك : « إن حال العقل المنكوب بمصيبة مفاجئة كحال السكان الخرافيين للأرض فى بدء خلقها حينما خيم عليهم أول ليل ظنوا أن النهار لن يعود أبداً . وحينما تتجمع سحب الهم فوقنا لا نرى شيئاً خلفها ، كما لا نستطيع أن نتخيل كيف تبدد . ومع ذلك تلا الليل نهار جديد ، والهم لا يستمر طويلاً من غير أن يعقبه فجر من الراحة والسلوى . غير أن هؤلاء الذين يمنعون أنفسهم من قبول الساوى يفعلون كما كان يفعل البدائيون لو أنهم فقأوا أعينهم حينما خيم الظلام . إن عقولنا كأجسامنا دائماً فى مد وجزر : تفقد كل ساعة شيئاً وتقتنى شيئاً . وليس من مصلحة أحدهما أن يفقد كثيراً ، لكن ستجد الطبيعة وسائل الإصلاح . بقيت القوى الحيوية سليمة . والبعد يؤثر على العقل كما يؤثر على

العين . وبينما نطفو على نهر الأيام يتضاءل دائماً كل مانتركه خلفنا ، ويزداد حجماً كل ما نقرب منه . فلا تبيح للحياة الركود ، وإلا توحلت لحاجتها إلى الحركة . وسلمى نفسك ثانية لتيارات العالم ، فبكواه ستختفى تدريجاً ، وستقابلين في طريقك وصيفة أخرى ، أو تتعلمين كيف تشغلين نفسك بأحاديث الناس جميعاً .

وقال الأمير : « لا تيأسى على الأقل قبل أن نجرب جميع الوسائل ، فالبحث عن السيدة البائسة لا يزال مستمراً ، وسيجرى مع ذلك بعناية أعظم بشرط أن تعدى بأن تنتظري النتيجة في مدى سنة من غير أن تتخذى قراراً حاسماً » .

فظنت نكايه أن هذا طلب معقول ، فوعدت أخاها ، وكان إملأك قد نصحه أن يطلبه . ولم يكن لإملأك بالطبع أمل كبير في العثور على بكواه ، لكنه ظن أنه إذا استطاع أن يطمئن مدة سنة فستكون الأميرة حينئذ بمنجاة من خطر الذهاب إلى الدير .



## الفصل السادس والثلاثون

### لا تزال بكواه في الذاكرة — سير الحداد

بعد أن رأت نكايه أنه لم يترك شيء في سبيل إعادة وصيقتها ، وبعد أن استبعدت اعتزامها العزلة بوعد لها لأخيها بدأت تعود على غير شعور منها إلى أنواع المتع والشئون المعتادة ، وابتهجت على الرغم منها بتأجيل أحزانها ، وأنبت نفسها أحياناً بغیظ وغضب لتحويل عقلها عن تذكر تلك التي كانت قد قررت ألا تنساها أبداً .

ثم حددت ساعة كل يوم للتأمل في سجايا بكواه وحبا لها ، فكانت تأوى دائماً إلى مخدعها في الوقت المحدد ، ثم تعود وعيناها منتفختان ، ووجهها تعلوه كدرة واكتئاب ، وظلت الحال كذلك بضعة أسابيع . ثم ضعف حرصها على التمسك بهذه العادة تدريجاً ، وسمحت للمشاكل الهامة الملحة أيا كان نوعها أن تؤجل الضريبة التي عليها أن تؤديها بدموعها اليومية ، ثم خضعت لأسباب أقل إلحاحاً ، ونسيت أحياناً ما كانت تخشى في الحقيقة أن تتذكره ، وأخيراً حررت نفسها تحريراً كاملاً من الآلام المفروضة عليها كل يوم .

ولم ينقص إلى الآن حبا لبكواه ، فألف من الحوادث أعادها للذاكرة ، وألف من الحاجات التي لا يستطيع أن

يسدها سوى الثقة المنبعثة عن الصداقة كثيراً ما أثار الحزن عليها . لذلك توسلت إلى إملأك ألا يكف عن البحث ، وألا يترك حيلة يمكن الحصول بها على معلومات دون أن يجربها حتى تريحها على الأقل معرفتها أن بكواه لم تقاس نتيجة الإهمال أو الكسل ، ثم قالت : « وماذا ينتظر من بحثنا عن السعادة إذا كنا نجد الحياة على هذا النحو : السعادة نفسها سبب الشقاء ؟ لماذا نحاول أن نحصل على ما لا يمكن الاحتفاظ بملكيته ؟ إنني أخشى من الآن أن أشغل قلبي بالتفوق مهما كان براقاً ، أو بالحب مهما كان رقيقاً ، وإلا فقدت ثانية ما قد فقدت أولاً في بكواه » .



## الفصل السابع والثلاثون

### الأميرة تسمع أخباراً عن بكواه

عاد أحد الرسل من حدود النوبة بعد كثير من الجولات غير الموفقة التي استغرقت سبعة شهور ، وكان قد أرسل في اليوم الذي أخذ فيه الوعد من الأميرة ، وأخبر أن بكواه في قبضة رئيس من الأعراب له قلعة أو حصن في أقصى حدود مصر . وهذا الأعرابي - وهو يعتمد في دخله على الغنيمة - مستعد أن يعيدها مع جارياتها نظير مائتي أوقية من الذهب .

لم يكن الثمن موضوعاً للمناقشة ، وأصبحت الأميرة في نشوة من الفرح حينما سمعت أن وصيفتها على قيد الحياة ، وأنها قد تفتدى بمثل هذا الثمن الزهيد . ولم تستطع أن تفكر في أن تؤخر سعادة بكواه ولا سعادتها لحظة واحدة ، بل تونسلت إلى أخيها أن يعيد الرسول بالمقدار المطلوب . ولما استشير إمرأته لم يكن واثقاً تماماً من صدق الراوي ، وكان أكثر شكاً في وفاء الأعرابي إذا منح من الثقة أكثر مما يجب ، فقد يحتفظ بالمال والأسرى معاً . وظن أنه من الخطر أن يضعوا أنفسهم في قبضة الأعرابي بالذهاب إلى موطنه ، ولم

يتوقعوا أن يعرض الأعرابي نفسه إلى حد المجيء إلى الوجه البحرى حيث تستطيع قوى الباشا أن تلقى القبض عليه .  
ومن الصعب المفاوضة حيث لا يثق أحد بآخر ، غير أن إملاك وجه الرسول — بعد تأمل — ليعرض أن تذهب بكواه بصحبة عشرة من الفرسان إلى دير القديس أنطونيوس الذى يقع فى صحارى الصعيد ، وهناك يقابلها نفس العدد وتدفع الفدية

ولما كانوا يتوقعون أنه لن يرفض العرض بدأوا فى الحال رحلتهم إلى الدير حتى لا يضيعوا وقتاً . وحينما وصلوا توجه إملاك مع الرسول الأول إلى حصن الأعرابي . وكان راسلاس يرغب فى الذهاب معهما ، غير أن أخته وإملاك لم يوافقا على ذلك . وراعى الأعرابي — حسب تقاليد أمته — أصول الضيافة بدقة تامة مع هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم فى قبضته . وأحضر بعد أيام قليلة بكواه مع جاريتها برحلة مريحة إلى مكانهم المعين حيث استلم الثمن المشروط ، وأعادها مكرمة غاية التكريم إلى الحرية وإلى أصدقائها ، وتعهد أن يعيدهم إلى القاهرة بعيدين عن كل خطر من سلب أو عنف .

فتعانقت الأميرة ووصيفتها بابتهاج يجل عن الوصف ، وخرجتا معاً لتسبلا سرّاً دموع العطف والحنان ، وتبادلا

عبارات الود وحمد الله تعالى . وبعد ساعات قليلة عادتا إلى  
قاعة الطعام بالدير . وهناك طلب الأمير من بكواه أمام  
كبير الرهبان وإخوانه أن تقص تاريخ مغامراتها .



## الفصل الثامن والثلاثون

### مغامرات السيدة بكواه

قالت بكواه : « لقد أخبرك خدمك بالوقت الذي اختطف فيهِ والطريقة التي اختطف بها . وإن سفاضة الحادثة قد أذهلتني ، وكنت في بادئ الأمر مبهوتة أكثر منى منزعة بوجدان الخوف أو الحزن . وزاد ارتباكى سرعة فرارنا وضجيجهِ أثناء مطاردة الأتراك لنا . ويظهر أن الأتراك يتسوا بسرعة من اللحاق بنا أو أنهم كانوا يخشون هؤلاء الذين يتظاهرون بتهددهم .

ولما رأى الأعراب أنفسهم بعيدين عن الخطر أبطأوا في سيرهم . ولما كنت أقل انزعاجاً بالعنف الخارجى بدأت أشعر بتزايد القلق في عقلى . وبعد فترة توقفنا عن السير بالقرب من نبع تظله الأشجار في واحة سارة المنظر . وقد أجلسنا هناك على الأرض ، وقدم لنا مثل ما كان يتناول أسيادنا من مرطبات ، وسمح لى أن أجلس مع جاريتى منفردات عن الآخرين . ولم يحاول أحد أن يواسينا أو يسيء إلينا . وهنا بدأت أحس لأول مرة بجسامة بوئسى . وجلست الجاريتان تنتحبان في صمت ، ونظرتا إلى من



حين إلى آخر تتلمسان الإغاثة والنجدة . ولم أكن أعلم  
ما قدر لنا من مصير ، كما لم أستطع أن أتكهن بالمكان الذى  
يقع فيه أسرنا ، أو من أين يأتينا أمل التحرر والخلاص .  
فقد كنت فى قبضة لصوص ومتوحشين ، ولم يكن لدى من  
الأسباب ما يجعلنى أتوقع شفقتهم فى الوقت الذى حرمت  
فيه من عدالتهم ، أو أنهم يتورعون عن إشباع ما أثارهم  
من شهوة وما استهواهم من قسوة . فقبلت على كل حال  
جاريتى ، وحاولت أن أهدئ من روعهما بلفظي نظرهما إلى  
أننا مازلنا نعامل برفق وأدب ، وأنه لما كنا الآن فى مأمن  
من المطاردة فليس هناك خطر من الاعتداء على أرواحنا .  
وحيثما حان الوقت لصدور الأمر بامتطائنا لظهور الجياد  
ثانية تشبثت جاريتى بى ، ورفضت أن تفرقا عني ، ولكنى  
أمرتهما ألا تثيرا هؤلاء الذين يملكوننا فى قبضتهم . ورحلنا  
بقية اليوم فى بلاد خالية من السكان والمسالك ، وجئنا مهتدين  
بضوء القمر إلى سفح تل كانت قد ألفت فيه بقية العصابة  
عصا التسيار ، وضربت فيه خيامها ، وأوقدت نيرانها .  
ورحب بمقدم رئيسنا أتباعه ترحيباً ينم عن الحب الجرم  
والوفاء الخالص .

واستقبلتنا فى خيمة كبيرة وجدنا فيها نساء كن يرافقن  
أزواجهن فى الغارة ، وقدمن أمامنا ما كن قد أعددنه من

عشاء . وأكلت لأشجع جاريتي أكثر من أن أشبع شهية في نفسي . ولما رفعت الصحف فرشت البسط للراحة والنوم . وكنت مجهدة ، وتمنيت أن أجد في النوم ذلك التحرر من الآلام الذى يندر أن تضمن به الطبيعة على النائمين . ولما أمرت جاريتي بناء على هذا أن تخلعا ملابسى لاحظت أن النسوة ينظرن إلى باهتمام عظيم ، لأنهن لم يتوقعن على ما أظن أن يروني مطاعة في الخدمة إلى هذا الحد . ولما خلع الجزء الأعلى من كسائي أخذن على ما يظهر برونق ثيابي ، ووضعت إحداهن يدها على الوشى بخشية وحذر ، ثم خرجت وفي فترة قصيرة عادت ومعها أخرى يظهر أنها من مرتبة أعلى وذات سلطة أقوى . فحيت عند دخولها التحية المعتادة ، وبعد أن قادتني من يدي وضعتني في خيمة أصغر مفروشة ببسط أثمن . وقضيت هناك الليلة في هدوء مع جاريتي .

« وبينما كنت جالسة على العشب في الصباح جاءني زعيم الأعراب ، ونهضت لاستقباله ، فأنحني باحترام عظيم ، وقال : « أيتها السيدة الجليلة ! إن حظي أسعد مما كنت أطمع ، فقد أخبرتني نسائي أن في مضاربى أميرة » . فأجيبته : « سيدى لقد خدعت نساؤك أنفسهن ، وخدعنك . فلست أميرة ولكنى غريبة بائسة قصدت أن تغادر قريبل البلاد التى هى

الآن سَجِيتَ بها إلى الأبد . فرد الأعرابي : « مهما يكن موطنك فان ثيابك و ثياب جاريتيك تدل على أن منزلتك رفيعة ، وأن ثروتك عظيمة . فلماذا تظنين نفسك في خطر أسر دائم وأنت تستطيعين أن تفتدى نفسك في يسر وسهولة ؟ إن الغرض من غاراتي هو أن أنمي ثروتي — أو بعبارة أصح — أن أجمع الجزية . فأبناء اسماعيل هم بالوراثة والطبيعة أرباب هذا الجزء من القارة . وقد اغتصبه الغزاة المتأخرون والبطغاة الوضيعون . ونحن مجبرون على أن نأخذ منهم بالسيف ما عجزنا عن أخذه بالعدالة . وإن عنف الحرب وشدتها لا يسمحان بالتمييز ، فالرمح الذي يصوب نحو الإثم والسيطرة يصيب أحياناً الأبرياء الوادعين » .

قلت : « ما أقل ما توقعت أن يصيبني هذا بالأمس . أجاب الأعرابي : « يجب أن نتوقع دائماً الحظ العاثر . ولو استطاعت عين العداوة أن تتعلم الاحترام أو العطف لأعفيت عظمة كعظمتك من الآلام والضرر ، غير أن ملائكة الكوارث ينشرون حباتهم على الفاضل والشرير والخطير والحقير على السواء . لا تكتئبي فلست أحد بدو الصحراء القساة العصاة . وإنني أعرف قواعد الحياة المتحضرة . وسأحيد فديتك ، وأعطى جوازاً بمرور رسلك ، وأوفى بعهدي في ميعاد دقيق مضبوط » .

« وستبين بسهولة أنني كنت مسرورة بمجاملته . ولما وجدت أن الرغبة في المال كانت جل همه بدأت حينئذ أظن أن خطرى قد قل ، لأننى عرفت أن المال مهما عظم مقداره يعتبر ضئيلا في نظرك بالنسبة لخلاص بكواه . وأخبرته أنه ليس هناك سبب يدعو لاتهامى بنكران الجميل إذا عوملت معاملة شفيقة ، وأنى سأدفع أية جزية يمكن أن تدفع لجارية من طبقة معتادة ، لكن لا ينبغي أن يصر على تقويمى بوصفى أميرة . فقال إنه سيفكر فيما ينبغي طلبه وبعد أن ابتسم انحنى وانصرف .

« وسرعان ما تجمعت النسوة بعد ذلك حولى ، كل تحاول أن تكون أكثر فضولا وتجلة من الأخريات ، بل إن جاريتى نفسيهما كانتا تخدمان باحترام . ثم اتجهنا إلى الأمام في رحلات قصيرة . وفي اليوم الرابع أخبرنى الرئيس أن فديتى مائتا أوقية من الذهب ، ولم أعده بها فحسب بل أخبرته أنني سأضيف إليها خمسين إذا عوملت أنا وجاريتاى معاملة شريفة .

« وما كنت أعرف قوة الذهب من قبل . ومن ذلك الوقت كنت قائدة الأعراب ، وكان السير اليومى يطول أو يقصر حسب أمرى ، والخيام تضرب للراحة حيث اختار . واجتمع لنا في ذلك الوقت جمال ووسائل أخرى مناسبة للرحيل . وكانت خادمتاى دائما بجانبى . وسليت نفسى

بملاحظة أساليب أعم البدو الرحل ، مع التأمل في بقايا  
العناصر القديمة التي يظهر منها أن هذه البلاد المهجورة كانت  
في عصر شحيح تسرف في اتخاذها زينة وحلية .

« وكان رئيس الأعراب رجلاً أبعد من أن يكون أمياً :

فقد كان يستطيع السفر مسترشداً بمواقع النجوم أو البوصلة .  
وقد حدد في الغارات المتشعبة أجدر الأماكن بملاحظة  
العابرين . ولفت نظري إلى أنه كلما قل التردد على الأماكن  
وصعب الوصول إليها احتفظت عمارتها وآثارها بحالة أفضل ،  
وكلما كثرت السكان أسرع إليها الخراب . والجدران أسهل في التزويد  
بالأحجار من المحاجر ، والقصور والمعابد تدمر لتقام مرابط للخيل  
من الصوان وأكواخ من الرخام السماقي .



## الفصل التاسع والثلاثون

### بقية مغامرات بكواه

« انتقلنا هنا وهناك على هذا النحو بضعة أسابيع ، إما لإرضائي كما زعم رئيسنا ، وإما لمصلحة خاصة به كما ارتبت أنا . وحاولت أن أظهار بالرضا حيث لا يجدى العبوس ولا الغضب . وأفضت بي هذه المحاولة إلى الكثير من هدوء بالي ، غير أن قلبي كان دائماً مع نكايه . وأربت هموم الليل على تسليات النهار إلى حد كبير . وجاريتاي اللتان وجهتا كل عنايتهما نحو سيدتهما ارتاح بالهما منذ رأيتني أعامل باحترام ، واتجهتا بكل جوارحهما فرحتين لمرفعات عرضية . وكنت مسرورة بسرورهما ، ومملوءة حيوية بثقتهما . وفقدت حالتي الكثير من فزعها منذ وجدت أن الأعرابي قد ذرع البلاد طمعاً في الثروة فحسب . والجشع رذيلة سهلة الانقياد ، وذات طابع واحد ، أما الأمراض العقلية الأخرى فتختلف باختلاف أبنية العقل وتراكيبه : فما يرضى كبرياء أحدها قد يسئ إلى كبرياء آخر . ولكن هناك طريق سهل ميسور لإرضاء الجشع مؤداه : أحضر النقود ولن يضمن عليك بشيء . »

« وأخيراً وصلنا إلى مسكن رئيسنا . وهو بيت متين  
رحب مبني بالحجر في جزيرة من جزر النيل تقع — كما  
أخبرت — تحت المنطقة الحارة . وقال الأعرابي :  
« أيتها السيدة ! سترتاحين بعد رحلتك أسابيع قليلة في  
هذا المكان حيث تعتبرين نفسك ملكة عاie . وإن عملي هو  
القتال ، ولهذا اخترت هذا المقام الخفى الذى أستطيع أن  
أغير منه غير ملاحظ ، كما أستطيع أن آوى إليه غير مطارد .  
ويمكنك أن ترتاحي الآن فى أمن وسلامة ، وهنا قليل من  
المسرات ، غير أنه لا يوجد خطر . ثم قادنى إلى الحجر  
الداخلية . وبعد أن أجلسنى على أنفس أريكة سجد بين يدى .  
أما نساؤه اللائى اعتبرننى منافسة لمن فقد نظرن إلى بحقد  
وضغينة ، ولكن بمجرد أن أخبرن بأننى سيدة عظيمة احتجزت  
للفدية فقط بدأن يتنافسن بعضهن مع بعض فى الخضوع لى  
واحترامى .

« وبعد أن اطمأننت ثانية بتأكيدات جديدة عن تحررى  
السريع صرفتنى طرافة المكان بضعة أيام عن الجزع . وقد  
أشرفت أبراجه على الريف إلى مسافة بعيدة ، وأطلت على  
الكثير من منعطفات النهر . وفى النهار تنقلت من مكان إلى  
آخر لأن دوران الشمس نوع رونق المنظر ، فرأيت كثيراً  
من الأشياء التى لم أرها مطلقاً من قبل . والتماسيح وعجول

البحر منتشرة في هذه المنطقة غير الآهلة بالسكان . وكثيراً ما نظرت إليها بفزع رغم أنني عرفت أنها لا تستطيع إيدائي . وتوقعت أن أرى أحياناً عرائس الماء التي وضعها — كما أخبرني إملاك — الرحالون الأوربيون في النيل . وحينما سألت عنها ضحك الأعرابي لسذاجتي .

« وفي الليل كان يصحبنى الأعرابي دائماً إلى برج أقيم منفرداً للأرصاد السماوية . وهناك حاول أن يعلمنى أسماء النجوم ومسالكها . ولم يكن لى ميل كبير لهذه الدراسة ، غير أن التظاهر بالاهتمام كان ضرورياً لأرضى معلمى ، وقد كان عظيم الاعتزاز بمهارته وكفايته . ووجدت بعد فترة قصيرة ألا بد من بعض الأعمال لأذهب سأم الوقت الذى كان يقضى دائماً فى نفس الأشياء . لقد كنت متعبة من النظار فى الصباح إلى الأشياء التى كنت قد انصرفت عنها مجاهدة فى المساء . ولهذا كنت راغبة فى النهاية أن أرصد النجوم خيراً من أن أظل بلا عمل . غير أنني لم أستطع دائماً أن أجمع أفكارى . وكثيراً ما كنت أفكر فى نكايه فى الوقت الذى تصورنى فيه الآخرون أتأمل السماء . وسرعان ما ذهب الأعرابي بعد ذلك إلى غارة أخرى . وحينئذ كان سرورى الوحيد فى أن أتحادث مع جاريتى حول الحادث الذى اختطفنا فيه والسعادة التى سوف نتمتع بها فى نهاية أسرنا » .



قالت الأميرة : « كانت هناك نساء فى قلعة أعرابيك ، فلماذا لم تتخذى منهن رفيقات لك ؟ ولماذا تجلسين وحدك طعامهن خامل فى المكان الذى وجدن فيه عملا أو تسلية ؟ أو لماذا لم تستطيعى أن تحتلمى أشهراً قابلة الحالة التى حكم عليهن بها إلى الأبد ؟ » .

فأجابت بكواه : « لم تكن تسليات النسوة سوى لعب أطفال لا يمكن أن تشغل عقلا اعتاد أن يشغل بما هو أقوى من العمليات . ولقد استطعت أن أعمل كل ما أبتهجن بعماله بوسائل حسية فقط بينما كانت أفكارى وخواطرى تطير إلى القاهرة . كن يجرين من غرفة إلى غرفة كما يشب الطائر فى قفصه من سلك إلى سلك ، ويرقص لمجرد الحركة كما تمرح الحملان فى المروج . وتظاهرت إحداهن أحيانا بأنها أصيبت حتى يأخذ الباقى حذرهن . وأخفت إحداهن نفسها حتى تبحث عنها أخرى . وتقضين بعض وقتهن فى مراقبة الأجسام الخفيفة تطفو فوق النهر ، وبعضه فى ملاحظة الأشكال المتنوعة التى تقطعت بها السحب فى السماء .

« وكان شغل الإبرة عملهن الوحيد . وقد ساعدتهن أنا وجاريتاى فيه أحيانا . ولكنك تعلم أنه بما أسهل ألا يجارى العقل الأنامل فيشرد منها . ولست ترتاب فى أن الأسر وفراق نكابة لا تغنى فيهما الأزهار الحريرية عزاء وسلوى .

« كما أنه لم يرج الكثير من القناعة والرضا في محادثتهن ، إذ عم يتوقع منهن أن يتحدثن ؟ لهن لم يرين شيئاً لأنهن قد عشن من شرح شبابهن في هذه البقعة المحدودة ، ولم يستطعن أن يعرفن ما لم يرين فهن لا يستطعن القراءة . ولم يفكرن إلا في الأشياء القليلة التي كانت واقعة تحت أنظارهن . وندرأن توجد لديهن أسماء لأى شىء غير ملابسهن وطعامهن . ولما كنت أقوى منهن شخصية كثيراً ما كنت أدعى لأضع حداً لشجارهن . وقد أنهيته بقدر ما استطعت من العذل والإنصاف . ولو أمكن أن يسرى عنى الاستماع إلى شكايات إحداهن لشغلت أغلب وقتى قصصهن الطويلة ، ولكن كانت بواعث حقدهن تافهة إلى حد أننى لم استطع الاستماع دون أن أقاطع القصة » .

قال راسلاس : « كيف يستطيع الأعرابي الذى صورته رجلاً على جانب غير عادى من الثقافة والتهديب أن يسر بحريمه حينما يكون مليئاً بمثل هؤلاء النسوة فقط ؟ هل هن جميلات فائنات ؟ » .

قالت بكواه : « إنه لايعوزهن ذلك الجمال الوضيع غير الجذاب الذى يعيش مجرداً من الحيوية أو السمو ، وغير مصحوب بنشاط الفكر أو وقار الفضيلة . غير أن مثل هذا الجمال بالنسبة لرجل كالأعرابي لم يكن سوى زهرة اقتطفت

عرضاً ثم قذف بها من غير عناية . ومهما تكن المسرات التي يجدها بينهن لم تكن من النوع الناشئ عن الصداقة أو طيب العشرة . وحينما كن يلعبن حوله كان ينظر إليهن بكبرياء غير مكترث بهن . وحينما تنافسن في نيل رضاه وتقديره انصرف عنهن أحياناً ضائقاً برما . ولما لم تكن لهن معرفة لم يستطع حديثهن أن يذهب شيئاً من سأم الحياة . ولما لم يكن لديهن اختيار لم يثر تعلقهن به — أو تظاهرن بالتعلق به — في نفسه كبرياء ولا رضا ولم يسم في نظر نفسه بسبب ابتسامات امرأة لم ترى رجل آخر سواه . كما أنه لم يتأثر بتقدير لم يستطع أبداً أن يعرف مدى ما فيه من إخلاص ، والذي يغلب أن يبذل لإيلاء منافس أكثر مما يبذل لإبهاج موضع التقدير . فذلك الذي أعطاه ولنله من حب كان مجرد توزيع — لم تصحبه عناية واكتراث — لنوافل وقته بينهن . ومثل هذا الحب يستطيع أن يمنحه الإنسان لمن يزدريه . ومثله لا يتضمن أملاً أو خوفاً ، كما أنه لا ينطوي على فرح أو حزن » .

قال إملأك : « لك أيتها السيدة من الأسباب ما يجعلك تظنين نفسك سعيدة بالإفراج عنك على هذا النحو من السهولة . كيف استطاع عقل متشوف للمعرفة أن يرغب — وسط مجاعة عقلية — في فقد ولية مثل حديث بكواه ؟ » .

فأجابت بكواه : « إننى ميالة للاعتقاد بأنه كان وقتاً ما فى حالة تردد . لأنه كلما اقترحت أن يرسل رسولا إلى القاهرة التمس رغم وعده عذراً للماطلة والتأجيل . وبينما كنت محتجزة فى منزله قام بكثير من الغارات إلى البلاد المجاورة . فلو أن غنيمة كانت معادلة لرغبته ربما رفض أن يحررنى . وعاد دائماً مجاملاً ، وقص على مغامراته ، وأبهجه أن يسمع ملاحظاتى ، وحاول أن ينمى معرفتى للنجوم . وحينما ألححت عليه أن يرسل رسائل هداى بكل ما يقنضيه الشرف والإخلاص من عهود . ولما استنفد جميع الوسائل المقبولة للماطلة والتأجيل حرك جنده ، وتركنى أحكم فى غيبته . وكنت متأثرة كثيراً بهذا التأجيل المقصود ، كما كنت أخشى أحياناً أن أنسى ، وأنكم تتركون القاهرة فاضطر إلى أن أختم أيامى فى إحدى جزر النيل .

« وازداد فى النهاية حزنى وبؤسى ، فاستقبلته استقبالاً فاتراً حتى إنه كان يتحدث فى أغلب الأحيان هنية إلى جاريتى . أما أن يقع فى غرامهما أو غرامى فكل الأمرين مهلك على السواء ، لذلك لم أكن سعيدة بنمو صداقتنا . ولم يطل قلبنى لأنه حينما استرددت بعضاً من الانسراح عاد إلى ، فلم أستطع الفرار من ازدراء قلبنى السابق .

« ولم يزل يوجل فى طلب فديتى ، وربما لم يصمم أبداً

على إرساله لو لم يجد مندوبك طريقه إليه . والذهب الذى  
لم يسع هو إليه لم يستطع أن يرفضه حينما قدم إليه . فأسرع  
فى الاستعداد لرحيلنا إلى هناك إسرار رجل تحرر من ألم نزاع  
داخلى ، واستأذنت رفيقائى فى المنزل فودعنى غير مكترثات  
مطلقاً » .

وبعد أن سمعت نكايه قصة وصيفتها نهضت وعانقتها ،  
ومنعها راسلاس مائة أوقية من الذهب فأهدتها إلى الأعرابى  
بدلاً من الخمسين التى وعدته بها .



## الفصل الأربعون

### حياة عالم من العلماء

وعادوا إلى القاهرة ، وكانوا مسرورين جداً باجتماعهم معاً حتى إنه لم يخرج أحدهم من البيت إلا قليلاً . وبدأ الأمير يكلف بالتعليم ، وأعرب لإملاك ذات يوم عن تصميمه على أن يهب نفسه للعلم ، وأن يقضى ما تبقى من أيامه في عزلة ينقطع فيها للعلم والأدب .

فأجاب إملاك : « قبل أن تضع اختيارك الأخير يجب أن تختبر أخطاره ، وأن تتحدث مع بعض هؤلاء الذين هرموا في عزلة لا رفيق لهم فيها سوى أنفسهم . لقد تركت الآن فقط مرصداً لأعلم علماء الفلك في العالم . قضى صاحبه أربعين عاماً في مراقبة لا تكل لحركات الأجرام السماوية وظواهرها ، وأقحم نفسه في إحصاءات حسابية لا نهاية لها . وهو يسمح لقليل من الأصدقاء مرة كل شهر أن يستمعوا إلى استنتاجاته ويتمتعوا باكتشافاته . وقد قدمت إليه بوصفى أحد رجال العلم الجديرين بعنايته . والرجال ذوو الأفكار المتنوعة والحديث

الطاق يرحب بهم عادة لدى هؤلاء الذين انحصرت أفكارهم طويلاً في نقطة واحدة فانسلت صور الأشياء الأخرى من مخيلتهم . وقد أبهجته بملاحظاتي ، وابتسم لقص رحلاتي ، وكان فرحاً لنسيانه الأفلاك والأبراج وهبوطه لحظة إلى العالم السفلي .

« وفي اليوم التالي من العطلة جددت زيارتي ، وكنت حسن الحظ أن يرتاح لحدِيثِي وقصصِي ثانية ، فخفض ما اعتاد من القيود الدقيقة الشديدة ، وأذن لي بالدخول كلما شئت . ووجدته دائماً مشغولاً ، وسرّ دائماً أن يتحرر من مشاغله بأحاديثي وقصصِي . ولما كان كل واحد منا يعرف الكثير مما يرغب الآخر في تعلمه تبادلنا الأفكار باغتياب عظيم . وأدركت أنني كنت أحتلّي كل يوم بالمزيد من ثقته ، ووجدت دائماً سبباً جديداً للإعجاب بعمق تفكيره ، فإدراكه جامع شامل ، وذاكرته محيطية دقيقة الحفظ ، وكلامه مرتب وتعبيره واضح .

« ونزاهته وميله للخير معادلان لعلمه . وهو على استعداد لأن يترك أعرق بحوثه وأحب الدراسات إليه متى سنحت فرصة لعمل الخير بنصيحته أو بماله . ويسمح لهؤلاء الذين يحتاجون مساعدته بالدخول إلى أشد الخلوات المغلقة إحكاماً في أكثر أوقاته ازدحاماً بالعمل . ويقول : « مع أنني أبخل على نفسي

بالراحة والتمتع لن أوصد بابى دون الإحسان والصدقة . فالإنسان  
يباح له أن يتأمل السموات ، ولكنه مكلف بتنفيذ ما تنطوى  
عليه الفضيلة » .

قالت الأميرة : « لا بد أن يكون هذا الرجل سعيداً » .

فقال إملاك : « لقد كثرت زياراتى له فى أغلب الأحيان  
كثرة مطردة ، فكنت أزداد فى كل مرة افتناناً بحديثه . لقد  
كان سامياً فى غير كبر ، مهذباً فى غير تكلف ، معبراً عن  
آرائه فى غير مباهاة . ولقد كنت من رأيك أولاً أيتها الأميرة  
العظيمة ، وظننته أسعد بنى الإنسان ، وكثيراً ما هنأته على  
النعمة التى تتمتع بها فتظاهر غير مكترث بأنه لم يسمع شيئاً سوى  
مديح حاله . وكان دائماً يجيب عنه إجابة عامة ، ويحول  
الحديث إلى بعض الموضوعات الأخرى .

« ومع رغبته هذه فى السرور وعمله الممتع سرعان ما تخيلت  
أن خاطراً أليماً يضغط على عقله . وكثيراً ما نظر بجد واهتمام  
إلى الشمس وخفض من صوته أثناء الكلام . وكان يتفرس فى  
أحياناً فى صمت حينما نكون منفردين بصورة رجل تطلع إلى  
أن يفضى إلى بما قرر إلى ذلك الوقت أن يكبت فى نفسه .  
وكثيراً ما أرسل إلى ملحا فى أن أسرع فى إجابة طلبه ، ومع ذلك



حينما وصلت إليه لم يكن لديه ما يقول مما هو غير عادي. وأحياناً  
كان يسترجعني عند خروجي من عنده ، ثم يقف لحظات قليلة  
يأذن لي بعدها بالانصراف .



## الفصل الواحد والأربعون

### الفلكي يكتشف سبب قلقه

« وأخيراً حان الوقت الذي أفلت فيه السر من تحفظه ،  
كنا جالسين معا بالأمس في برج منزله نرصد ظهور  
بع « المشتري » . وفجأة هبت عاصفة ملأت السماء  
لسحب ، وأفسدت رصدنا ، فجلسنا هنيهة صامتين في  
لظلام ، ثم وجه الخطاب إلى في هذه الكلمات : « إمالك !  
لقد اعتبرت صداقتك طويلاً أعظم نعمة في حياتي . وإن  
النزاهة من غير معرفة ضعيفة ولا قيمة لها ، كما أن المعرفة  
من غير نزاهة خطيرة ومخيفة . ولقد وجدت فيك كل  
الصفات المطلوبة للثقة وهي : الميل للخير والتجربة والجلد .  
ولقد عهد إلى منذ أمد بعيد بمنصب يجب أن أتركه سريعاً  
عند نداء الطبيعة . وسيسعدني في ساعة العجز والألم أن  
أسلمه لك » .

« فظننت أن هذه الشهادة قد شرفت نفسي ، وأكدت  
أن كل ما يؤدي إلى سعادته يضيف أيضاً إلى سعادتي .  
فقال : « استمع يا إمالك إلى ما يصعب عليك تصديقه .  
لقد هيمنت خمس سنوات على تنظيم الجو وتوزيع الفصول .  
فأصغت الشمس لإملائي وتكليفني ، وانتقلت من مدار إلى مدار

بتوجيهي ، وهطلت مياه السحب بدعوتي ، وفاض النيل بأمرى .  
لقد حلت دون غضب « الشعْرى » ، وخففت من حدة  
« السرطان » . غير أن الرياح وحدها من بين عناصر الطبيعة  
لم تخضع إلى الآن لسلطاني . ولقد هلكت أفواج من الناس  
بسبب زوابع الاعتدالين . وقد وجدت نفسى غير قادر على  
منعها أو تعويق سيرها . ولقد أدت هذا المنصب بعدالة  
تامة ، وجعلت لأهم الأرض المختلفة نصيبا عادلا من الغيث  
وضياء الشمس . فإذا كان يكون بوئس الكرة الأرضية  
لو أننى خصصت السحب بمناطق معينة ، أو لو أننى قصرت  
الشمس على جانب واحد من جانبي خط الاستواء ؟ » .



## الفصل الثانی والأربعون

### رأى الفلكى يوضح ويبرر

« وأظن أنه تبين فى خلال ظلام الحجرة بعض علامات الاندھال والشك لأنه واصل كلامه على النحو الآتى :

« وإنه لا يدهشنى ولا يغضبى ألا أصدق بسهولة . وقد أكون أول كائن إنسانى عهد إليه بهذه الوديعة ، كما أنى لا أدرى أأعتبر هذا الامتياز ثوابا أم عقابا ، فإننى منذ حزته كانت سعادتى أقل كثيرا منها قبل حيازته . ولم يستطع شئ سوى الشعور بنبل القصد إقدارى على أن احتمل نصب المراقبة المستمرة » .

قلت : « وكم من الزمن قضى سيدى فى الإشراف على هذا المنصب العظيم ؟ » .

قال : « منذ عشر سنوات تقريبا انتهت بى أرصادى اليومية لتغيرات السماء إلى أن أفكر فى أنه لو كان لى سلطان على الفصول لاستطعت أن أهب خيرات أعظم لسكان الأرض . وتمكن هذا الخطار من عقلى ، فجلست أياما وليالى فى مملكة خيالية ، غامرا البلاد القريبة والبعيدة بغيث الخسوبة ، ومتبعًا كل سقوط للمطر بنسبة مناسبة من ضوء الشمس .

ولم تكن لى إلى الآن سوى الرغبة فى عمل الخير ، ولم أتصور أنه ستكون لى القدرة عليه مطلقا .

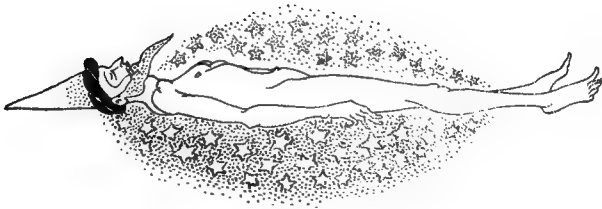
« وذات يوم حينما كنت أنظر إلى الحقول الذابلة بتأثير الحرارة شعرت فى نفسى بأمنية مفاجئة هى تمكنى من إسقاط المطر على الجبال الجنوبية ورفع مستوى النيل إلى درجة الفيضان . وبسبب سرعة تخيلى أمرت المطر أن يهطل . ولما وازنت بين الوقت الذى صدر فيه أمرى ووقت الفيضان تحققت أن السحب قد استجابت لندائى » .

قلت : « ألا يحتمل أن سببا آخر قد نشأ عنه هذا الاتفاق ؟ إن النيل لا يرتفع دائما فى نفس اليوم » .

قال جزعا : « لاتعتقد أن مثل هذه الاعتراضات تغيب عنى . لقد فكرت طويلا فى الاتجاه المضاد ليقينى ، وجاهدت ضد الحقيقة بأقصى ما يكون من العناد والمكابرة ، وارتبت أحيانا فى أننى مجنون ، وما كنت لأمنح هذا السر لإلرجل مثلك يستطيع التمييز بين العجيب والمستحيل ، وبين الذى يصعب تصديقه والباطل » .

قلت : « لماذا تصف يا سيدى ما تعرف أنه حق — أو ما تظن أنك تعرفه كذلك — بأنه صعب التصديق ؟ » .  
قال : « لأننى لا أستطيع أن أقيم عليه أى برهان ظاهرى . وإنى أعرف أصول البرهنة تمام المعرفة فلا أحتم

على آخر أن يتأثر بما هو يقين عندى وهو لا يستطيع أن يكون مثلى شاعرا بقوته . ولهذا لن أحاول أن أكسب التصديق بالنزاع والمجادلة ، ويكفينى أن أشعر فى نفسى بهذه المقدرة التى حزتها طويلا ، ومارستها كل يوم . غير أن حياة الإنسان قصيرة ، وضعف الشيخوخة يتكاثر على ، وسيأتى سريعا الوقت الذى لا بد أن يمتزج فيه منظم السنة الشمسية بالتراب . ولقد أقلقنى طويلا الاهتمام بتعيين خلفى ، فقد قضيت الليل والنهار أوازن بين الشخصيات التى وصلت إلى علمي ، فلم أجد مع ذلك أحدا جديرا بهذا سواك أنت » .



## الفصل الثالث والأربعون

### الفلكى يتزك لاملاك توجيهاته

« فأصغ إذن إلى ما سأنبئك به مع ما تقتضيه مصلحة العالم من عناية واهتمام . وإذا اعتبرت مسئولية الملك شديدة الصعوبة رغم أنه لا يرعى سوى ملايين قليلة لا يملك لهم كثيراً من الضرر أو النفع فما أشد قلق من تتوقف عليه حركة عناصر الطبيعة ، وهبتا الضوء والحرارة الخطيرتان . لهذا أصغ إلى باهتمام .

« لقد فكرت تفكيراً جاداً فى مركز الأرض والشمس ، وكونت عدداً لا يحصى من الخطط غيرت فيها موقعهما ، وحولت محور الأرض تارة ، ونوعت مدار الشمس تارة أخرى . غير أننى قد وجدت من المحال أن أضع نظاماً تزداد به منفعة العالم : فما تكسبه منطقة تخسره أخرى مهما تصورت من التغير والتبديل حتى مع استبعاد الأجزاء النائية من المجموعة الشمسية التى لا نعرف عنها شيئاً . فلا ترض كبرياءك إذن — أثناء إدارتك للسنة الشمسية — بابتداع البدع . ولا تسر نفسك بفكرة

أنك تستطيع تخليد ذكرك بتغيير نظام الفصول ، فذكرى الشر ليست شهرة مرضية . كما لا ينبغي أن تسيطر عليك عاطفتك أو مصلحتك الخاصة ، فلا تحرم أبداً البلاد الأخرى من المطر لتغمر به بلادك ، ففي النيل الكفاية لنا » .

« فوعدت أنى حينما أحوز هذه المقدرة سأستخدمها بنزاهة تامة . فصرفى ضاغطاً على يدي ، ثم قال : « سيراتح الآن قلبي . ولم يعد حبي للخير يفسد على هدوء بالي . لقد وجدت رجلا من الحكماء استطيع — وأنا منشرح الصدر — أن أعهد إليه بميراث الشمس » .

استمع الأمير إلى هذه القصة باهتمام بالغ ، غير أن الأميرة ابتسمت ، أما بكواه فقد استغرقت في الضحك إلى حد التشنج . قال إملاك : « ليس من الكرم ولا من الحكمة أيتها السيدتان أن تسخرنا من أشد البلايا البشرية . فقليل من الناس يستطيع أن يحصل على ما حصل عليه هذا الرجل من معرفة ، وقليل منهم يستطيع أن يمارس فضائله ، غير أنه لا يأمن أحد أن يصاب بمصيبته . وإن أشد أنواع القلاق رعباً وخطراً في حالتنا الراهنة هو عدم التأكد من دوام العقل عند الإنسان » .



فاحتشمت الأميرة ، وخمجت الوصيفة . ولما كان  
تأثر راسلاص أعمق سأل إملاك عن أمراض العقل هذه ،  
وعن مدى انتشارها ، وعن الوسائل التي عولجت بها لحصرها  
في نطاق ضيق .



## الفصل الرابع والأربعون

### السيطرة الخطرة للخيال

أجاب إملاك : « إن اختلال العقل يحدث أكثر كثيراً مما يعتقد ببساطة المراقبون قصار النظر . وإذا كانت الدقة التامة رائدنا في كلامنا لا محتمل أن يوجد عقل إنسان في حالته السليمة . إذ ليس هناك إنسان لا يتغلب خياله أحياناً على عقله . وليس هناك من يستطيع أن يوجه انتباهه توجيهاً كاملاً بإرادته ، وتأتي أفكاره وتذهب بأمره . ولن يوجد من لا تعذبه أحياناً خواطر عقله الوهمية ، وتضطره إلى أن يأمل أو يخاف متجاوزاً في ذلك حدود الاحتمال الرزين اليقظ . للأمل أو الخوف . وكل سيطرة للخيال على العقل درجة من درجات الجنون ، غير أن هذه السيطرة لا يراها الآخرون ما دمنا نستطيع ضبطها واعتراض طريقها ، كما أنها لا تعتبر بأية حال حرماناً من القوى العقلية . إنها لا تدعى جنوناً إلا حينما نعجز عن ضبطها ، وتؤثر تأثيراً ظاهراً في كلامنا أو عملنا .

« ويكثر أن يكون لهؤلاء الذين يغالون في الابتهاج بالتأمل الصامت هو إشباع قوة الخرافة وإطلاق الخيال يخلق في الفضاء . وحينما نكون منفردين لا نكون دائماً مشغولين .

والتفكير المجهد يبلغ من العنف حدا لا يستمر معه طويلا .  
وحماسة البحث تفسح الطريق أحيانا للخمول أو القناعة بالقليل .  
ومن لا يجد شيئا ظاهريا يستطيع أن يسرى عنه لا بد أن يجد  
السرور في أفكار نفسه ، ولا بد أن يتصور نفسه على  
غير حقيقة ، لأن المرء لا يسعده أن يعرف حقيقة نفسه .  
ثم يتبحر في خضم لاحد له من الأزمنة المقبلة ، وينتقى من  
جميع الحالات القابلة للتخيل تلك التي يرغبها أكثر من غيرها  
للخطة الراهنة ، ويسرى عن رغباته بمتع مستحيلة ، ويمنح  
كبريائه ملكا لا يمكن الحصول عليه . فالعقل ينتقل من  
منظر إلى منظر ، ويوحد جميع المسرات بسائر تشكيلاتها ،  
ويشغب في مباحج لم تستطع الطبيعة ولا الحظ - بكل ما فيهما  
من سخاء - أن يمنحاه إياها .

« ويستأثر بالانتباه على مر الزمن بعض سلسلات معينة  
من الأفكار ، ويرفض جميع ما عداها مما يرضى به العقل  
نفسه . ويلتجئ العقل في العمل أو الراحة إلى الفكرة  
المصطفاة ، ويعيش على الباطل الخلاب كلما كدرته مرارة  
الحقيقة . ويتوطد حكم الخيال تدريجاً . إنه ينمو متغطرساً ،  
ويصبح على مر الزمن حاكماً مستبداً . ثم تبدأ الخرافات تعمل  
كأنها حقائق ، وتتمكن الآراء الباطلة من العقل ، وتنفضي  
الحياة في أحلام من السرور المفرط أو العذاب الأليم .

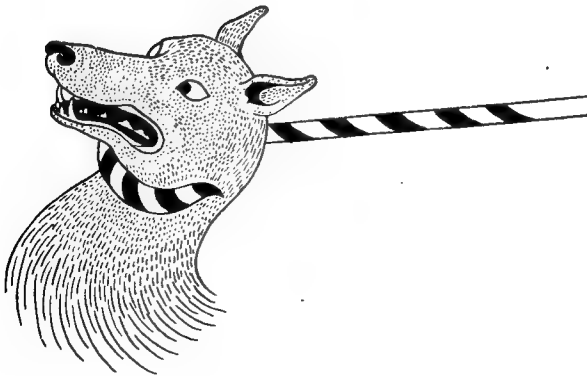
« هذا يا سيدى أحد أخطار العزلة التى أقر الزاهد بأنها لتضييف دائما إلى أعمال الخير ، والتى برهنت مأساة الفاكى على أنها ليست دواما متفقة مع الحكمة » .

قالت الوصيصة : « لن أتخيل نفسى بعد الآن ملكة على الحبشة . فكثيراً ما قضيت الساعات التى أطلقت الأميرة لى فيها الحرية - فى ترتيب الاحتفالات وتنظيم البلاط ، فقمعت كبرياء القوى وأجبت التماسات الفقير . لقد شيدت قصورا جديدة فى مواقع أكثر بهجة وفتنة ، وغرست الأحراش على قمم الجبال ، وابتهجت بما يبذله المملوك من جود وسخاء ، حتى دخلت الأميرة وقد نسيت تقريبا أن أركع بين يديها » .

وقالت الأميرة : « وأما أنا فلن أسمح لنفسى بعد الآن أن أمثل دور الراعية فى أحلام يقظتى . فكثيرا ما هدأت أفكارى بأعمال الرعاة البريئة الوداعة حتى توهمت أنى أسمع فى حجرتى الرياح تصفر ، والنعاج تنغو . وحررت أحيانا الحملان مما عرقل سيرها فى الدغل ، وناضلت آونة الذئب بعصاى . ولى ثوب كنياب جوارى القرى ألبسه ليساعد خيالى ، ونأى أعزف عليه نغما حالما ، وأتوهم نفسى فى مقدمة قطعانى » .

قال الأمير : « إنى اعترف بأن إشباع الرغبة الوهمية أخطر من إشباع بهجتك . فكثيرا ما حاولت أن أتصور أنه

من الممكن إقامة حكومة كاملة يجب أن تقمع بها الأخطاء والآثام ، وتصلح جميع الرذائل ، وتعيش الرعايا جميعا في هدوء وطهارة . وقد نشأ عن هذه الفكرة عدد لا يحصى من خطط الإصلاح ، كما أنها أملت كثيرا من القوانين النافعة والمراسيم المفيدة . كانت هذه هي اللهو - وأحيانا العمل - في عزلي . وإنه ليقشعر بدني حينما أفكر في أنني قد افترضت ذات مرة موت أبي وإخوتي وأنا أقل ما أكون ألما وحزنا . وعلق إملاك قائلا : « هذه هي آثار الخطط الوهمية . وحينما نبدأ في تكوينها تبين لنا استحالتها ، غير أننا نألفها تدريجا ، ثم تختفى حماقتها عن أنظارنا على مر الزمن » .



## الفصل الخامس والعشرون

### حديث مع شيخ هرم

وكان الليل قد ولى شطر كبير منه فنهضوا للعودة إلى البيت . وبينما كانوا يسرون محاذين لضفة النيل مبتهجين بنور القمر المترجرج على صفحة الماء رأوا من مسافة قريبة شيخا كثيرا ما استمع إليه الأمير في مجتمع الحكماء . ثم قال الأمير : « ها هو ذا الرجل الذى سكنت السنين وجداناته ، ولكنها لم تلبد عقله بالغيوم . فلنختم أبحاث الليلة بسؤاله عن رأيه فى حاله الخاصة علنا نعرف إن كان الشباب وحده هو الذى عليه أن يكافح بكدر ومضايقة ، وتدخر أفضل الآمال للجزء الأخير من الحياة » .

وهنا اقترب الحكيم وحياهم ، فدعوه ليشاركهم فى سيرهم ، وأطالوا الحديث فيما لا طائل تحته فترة من الزمن كما يفعل الأصدقاء وقد جمعت بينهم المصادفة . وكان الشيخ منشرح الصدر وكثير الكلام . وبدا الطريق بصحبته أقصر من حقيقته . وسره أن يجد نفسه موضع عنايتهم ، فصحبهم إلى منزلهم ، ودخل - بدعوة من الأمير - معهم ،

فأجلسوه في صدر المجلس ، ووضعوا أمامه النبيذ والفواكه المجففة .

وقالت الأميرة : « سيدى لابد أن نزهة المساء تعطى لرجل من رجال المعرفة مثلك مباهج ومسرات يشق على الجهال والشباب تصورها . فأنت تعرف خصائص كل ما ترى وأسبابه : أنت تعرف القوانين التي بها يجري النهر ، والأزمة التي تتم فيها الكواكب دوراتها . وكل شيء لابد أن يحملك على التأمل ، ويجدد شعورك بوقار نفسك » .

فأجاب : « أيتها السيدة لينعم المريح والقوى بنزهاته . وحسب الشيخوخة السكينة والهدوء ، إذ العالم قد فقد في نظري طرافته : إنني أتطلع حولي فأرى ما أتذكر أنني قد رأيته في أيام أسعد . واستلقي بجانب شجرة فأفكر في أنني جادلت مرة في ظل هذه الشجرة نفسها صديقاً صامتاً الآن في قبره حول الفيضان السنوي للنيل . وأرمى ببصرى إلى أعلى ، وأثبتته على القمر المتغير فأفكر بحسرة وألم في تقلبات الحياة . إنني لم أعد أجد البهجة في الحقائق المادية لأنه ماذا عساي أن أفعل بتلك الأشياء التي عما قريب أغادرها ؟ » .

قال إملاك : « قد تسر نفسك على الأقل بذكرى حياة شريفة ونافعة ، وتتمتع بالمديح الذي يجمع الكل على خصلك به » .

قال الحكيم متأوهاً : « المدح للشيخ الفاني نعمة جوفاء :  
فليس لى أم تبتهج بسمعة ابنها ، ولا زوج تسهم فى تكريم  
زوجها . لقد عشت بعد أصدقائى ومنافسى . وليس هناك  
الآن شىء اهتم به اهتماماً كبيراً ، لأن مصالحى تنهى بانتهائى .  
فالشباب يبتهج بالثناء لأنه يعتبر ضماناً لخير مستقبل ، ولأن  
مسرح الحياة أمامه مترامى الأطراف . أما بالنسبة لمن يتدهور  
الآن نحو الهرم والعجز مثل فهناك قليل يخشاه من ضغينة  
الناس ، وأقل من القليل لا يزال يرجوه من عطفهم أو  
تقديرهم . إنه لا يزال هناك شىء يستطيعون أن يسلبوني إياه ،  
ولكنهم لا يستطيعون أن يمنحوني شيئاً . فالثروة الآن لا قيمة  
لها . والأعمال السامية ألم وشقاء . وإن تفكيرى فى حياتى  
الماضية ليعيد لى نظرى كثيراً من فرص للخير أهملتها ،  
ووقتاً طويلاً أضعته فى التافه من الأمور ، وفقدت وقتاً  
أطول فى الحمول والفراغ . فأترك كثيراً من الخطط العظيمة  
لم تحاول ، وكثيراً من المحاولات الخطيرة لم تتم . فليس عقلى  
الآن مثقلاً بجريمة ينوء بها . وأهيب نفسى للهدوء ، وأحاول  
أن أجرد أفكارى من الآمال والهموم التى لاتزال تحاول أن  
تحتفظ باستيلائها القديم على القلب رغم أن العقل يراها عبثاً ،  
وانتظر بتواضع هادئ رزين الساعة التى لاتستطيع الطبيعة أن  
تؤخرها طويلاً ، وآمل أن أحصل — فى حالة أفضل — على



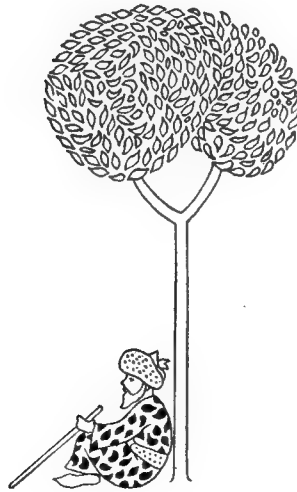
تلك السعادة التي لم أستطع أن أجدها هنا ، وتلك الفضيلة التي لم أحصل عليها في هذه الحياة » .

ثم نهض وانصرف تاركاً سامعيه قليلى الابتهاج بالأمل في حياة طويلة . وسرى الأمير عن نفسه ملاحظاً أنه ليس من الحكمة أن يخيب أملنا بهذه القصة . إذ لم تعتبر الشيخوخة مطلقاً عهداً للبهجة والانشراح . وإذا كان من الممكن أن يكون المرء مطمئناً في حالة التدهور والضعف كان من المحتمل أن تكون أيام القوة والنشاط سعيدة ، فقد يكون ظهر الحياة مشرقاً إذا أمكن أن يكون المساء هادئاً .

وشكت الأميرة في أن الشيخوخة عهد الحقد والتذمر ، وسرها أن تقمع ما يعلقه أولئك الذين استقبلوا الحياة منذ عهد قريب من آمال . وكانت قد رأت أصحاب الضياع يحسدون ورثتهم ، وعرفت كثيراً ممن لا ينعمون بالمسرات إلا إذا استطاعوا أن يقصروها على أنفسهم .

وتكهنت بكواه بأن الرجل كان أكبر سنّاً مما بدا عليه ، كما كانت ميالة إلى أن تنسب شكواوه إلى اكتتابه الذي نشأ عنه الهذيان ، وظنت — إن لم يكن هذا — أنه كان سيء الحظ ، ولهذا لم يكن قانعاً ، ثم قالت : « ليس هناك ما هو أكثر ذبوعاً من أن نطلق على حالتنا الخاصة حالة الحياة » . ولم يشأ إملاك أن يعكّر صفوهم فابتسم للآراء المرفهة

التي استطاعوا أن يعدوا أنفسهم إعداداً كاملاً لقبولها .  
وتذكر أنه كان في نفس السن واثقاً مثلهم في السعادة المطابقة .  
وكان مثلهم منتجاً للوسائل المسرية عن النفس فامتنع عن أن  
يفرض عليهم معارف ليسوا مستعدين لقبولها ، والزمن نفسه  
كفيل بفرضها قريباً . ثم أوت الأميرة ووصيفتها إلى مخدعتهما ،  
وعلق بذهنهما جنون الفاكى ، ورغبنا أن يشغل إمالك  
منصبه ، ويؤجل شروق الشمس في الصباح التالي .



## الفصل السادس والأربعون

### الأميرة وبكواه تزوران الفلكي

بعد أن تكلمت الأميرة وبكواه عن الفلكي صاحب إملاك منفردتين ظنتا أن طبعه قد بلغ من الأنس والغربة في آن واحد حداً لم تستطيعا معه أن تقنعا إلا بمعرفته معرفة أقرب . فطلبت من إملاك أن يبحث عن الوسيلة لاجتماعهم معاً .

كان هذا التكليف صعباً نوعاً ما : فإن الفيلسوف لم يستقبل أبداً زائرات مع أنه عاش في مدينة بها كثير من الأوربيين الذين يتمسكون بتقاليد بلادهم ، كما كان بها كثير من أجزاء العالم الأخرى عاشوا هناك مقلدين الأوربيين في حريتهم . لم يرفض طلب السيدتين ، واقترحت خطط عديدة لإنجاز ما صممتا عليه . فاقترح أن تقدما إليه بوصفهما غريبتين في ضائقة ، وكان يسهل الوصول إلى الفلكي دائماً في مثل هذه الحال . غير أنه بعد تفكير قليل اتضح أن التعارف لا يمكن أن يتم بهذه الحيلة ، لأن محادثتهم ستكون قصيرة ، وأنهما لا تستطيعان أن تلحا عليه كثيراً إلحاحاً مقبولا .

قال راسلاص : « هذا حق ، لكن عندى مع ذلك اعتراض أقوى ضد التثويه عليه فى حالتكما . لقد اعتبرت دائماً أنه خيانة لصالح الطبيعة البشرية العام أن تجعل من فضائل أى إنسان وسيلة لخداعه سواء أكان ذلك فى مناسبة خطيرة أم ضئيلة . فجميع أنواع الخدع تضعف الثقة وتخدم جذوة الخير . وحينما يكتشف الحكيم أنكما على غير ما تظاهرتما به سيشعر بغضب طبيعى بالنسبة لرجل يكتشف — مع شعوره بكفائاته العظيمة — أنه قد خدع بعقول أقل منه منزلة . وربما أسكت فقدان الثقة — ولن يستطيع أن يتخلى عنه كلية فيما بعد — صوت النصيحة ، وقبض يد الجود . وأين تجد القدرة على استعادة خبره للإنسانية وسلامه لنفسه ؟ » .

لم يحاول أحد أن يجيب على هذا ، وشرع إملاك يأمل أن تنجو جذوة استطلاعهما . غير أن بكواه أخبرته فى اليوم التالى أنها قد وجدت حيلة شريفة لزيارة الفلكى ، وهى أنها تلتمس الإذن منه فى أن تواصل معه الدراسات التى بدأتها مع الأعرابى ، وستذهب معها الأميرة إما بوصفها زميلة لها فى الدراسة ، أو لأن اللياقة تأبى أن تأتى إليه امرأة بمفردها . قال إملاك : « إننى أخشى أن يضيق بصحبتك سريعاً ، فإن الرجال الذين قطعوا شوطاً بعيداً فى المعرفة لا يحبون أن يكرروا مبادئ فهم . ولست واثقاً من أنك ستصغى

بإدراك تام حتى إلى المبادئ حينما يلقيها متصلة بالاستنتاجات  
وممزوجة بالتأملات » .

قالت بكواه : « ذلك شأني . إنني لا أسألك سوى أن  
تأخذني إلى هناك . وربما تكون معرفتي أغزر مما تتصور ،  
وسأجعله يظنها أعظم مما هي بتأميني الدائم على آرائه » .  
وتنفيذاً لهذا القرار أخبر الفلكي أن سيدة أجنبية قد ترامت  
إلى سمعها شهرته — وهي تجوب البلاد طلباً للمعرفة — فرغبت  
أن تتلمذ عليه . فضاغت غرابة الاقتراح دهشته واستطاعه .  
وحيثما وافق على أن يأذن لها بعد تفكير قصير لم يستطع أن يظل  
من غير جزع حتى اليوم التالي .

فلبست السيدتان أفخم ثيابهما ، وصحبهما إملاك إلى الفاكى  
فسره أن يرى نفسه موضع التبجيل من أشخاص على هذا  
ال جانب من روعة المظهر وفخامته . وعند تبادل المجاملات  
الأولى كان خائفاً وخجلاً ، ولكن عند ما انتظم الحديث  
استجمع قواه ثانية ، وحقق ظن إملاك في شخصيته . وعند ما  
سأل بكواه عما حول ميلها نحو الفلك قصت عليه قصة مغامرتها  
عند الهرم ، والوقت الذي قضته في جزيرة الأعرابي . ألقت عليه  
قصتها بسهولة ولباقة فاستولت محادثتها على قلبه . ثم تحول  
الحديث إلى الفلك فعرضت عليه ما عرفت ، واعتبرها آية من

آيات العبقريّة . وتوسل إليها ألا تعدل عن دراسة بدأتها بمثل هذا التوفيق .

ثم عادتا لزيارته مراراً ، وكانتا في كل مرة يرحب بهما أكثر من سابقتها ، وحاول الحكيم أن يسرى عنهما حتى تطيلا زيارتهما ، لأنه وجد أفكاره تزداد إشراقاً في صحبتيهما . فتقشعت سحائب الكلفة تدريجاً حينما ألزم نفسه باستقبالهما ، وحزن حينما ترك عند رحيلهما لعمله القديم وهو تنظيم الفصول . وكانت الأميرة ووصيفتها قد راقبتا في ذلك الوقت شفقيته شهوراً عدة ، ولم تستطعا أن تظفرا بكلمة واحدة يمكنهما أن تسندلا منها على استمراره أو عدم استمراره في الاعتقاد بأنه مفوض فوق الطبيعة . وكثيراً ما دبرت أن تواجهاه بإعلان صريح ، ولكنه كان يتملص بسهولة من حملاتهما . ومهما كان الجانب الذي طارده منه كان يفلت منهما إلى بعض الموضوعات الأخرى .

ولما نمت بينهم الألفة دعته كثير إلى بيت إيملاك حيث خصته باحترام غير عادى فبدأ يتهج شيئاً فشيئاً بالمسرات الدنيوية ، وأخذ يحضر مبكراً ، ويغادر متأخراً ، ويعمل على أن يزكى نفسه عندهم بالمثابرة والإذعان ، ويشير جبهما لاستطلاع فنون جديدة ، وبذلك قد تحتاجان إلى المزيد من مساعدته .

وكلما قامتا بنزهة للسرور أو البحث توسل إليهما أن يصحهما .

وأيقن الأمير وأخته أن القلكي أهل لثقتهم من غير خطر بعد أن جربا طويلا نزاهته وحكمته . وخشية أن يعلق آمالا باطلة على المجاملات التي قوبل بها كشفها له عن حقيقة حالهما ، مع بواعث رحلتهم ، وسألاه زأيه في « اختيار طريق الحياة » . قال الحكيم : « إنني لا أستطيع أن أرشدكما إلى ما تختاران من الحالات المتباينة التي يبسطها العالم أمامكما ، وإنني لا أستطيع سوى أن أخبركما أنني كنت مخطئاً في اختياري . لقد قضيت وقتي في دراسة من غير تجربة ، وفي تحصيل علوم لا يستطيع أغلبها أن يخدم الإنسان إلا من بعد . لقد اقتنيت المعرفة على حساب جميع وسائل الراحة المعتادة في الحياة . ولقد حرمت رقة الصداقة النسوية المحببة إلى النفس ، والاتصال السعيد بجنو الأسرة . وإذا كنت قد حصلت على امتيازات فوق الطلاب الآخرين فقد كانت مصحوبة بالخوف والقلق والشك والتردد . ولقد بدأت أرتاب حتى في حقيقة هذه الامتيازات مهما كان نوعها منذ تشبعت أفكارى بازدياد مخالطتى للعالم . وحينما استغرقت أياماً قليلة في لهو سار ملت دائماً للاعتقاد بأن أفكارى قد انتهت إلى خطأ ، وأننى قد عانيت كثيراً ، وعانيته من غير نتيجة » .

وسر إهلاك أن يجد عقل الحكيم يبدد غيومه ، وقرر أن يصده  
عن الأبراج والأفلاك حتى ينسى واجبه في تنظيمها ، ويستعيد  
عقله تأثيره الأصلي .

ومن ذلك الوقت كان يستقبل الفلكي كما يستقبل الخاصة  
من الأصدقاء ، فشاركهم جميع مشروعاتهم ومسراتهم ، وجعله  
احترامه لهم متنبهاً إلى أقوالهم وأعمالهم . ولم يدع له نشاط راسلاس  
وقتماً طويلاً من الفراغ : فكان هناك دائماً شيء لا بد من إنجازه ،  
فيقضى الصباح في الملاحظات التي صلحت مادة لحديث  
المساء ، وتختتم المساء بخطة للغد .

واعترف الحكيم لإملاك أنه منذ اندمج في ضجيج الحياة  
المبهج ، وقسم ساعاته بين المتع المتتابعة وجد أن اعتقاده  
بسيطته على السموات قد تلاشى تدريجاً من ذهنه ، وشرعت ثقته  
تضعف برأى لم يستطع أن يدلل عليه للآخرين ، ووجده  
وقتئذ خاضعاً لتغيرات لم يكن للعقل دخل فيها ، وقال :  
« لو انفردت ساعات قليلة لطغت على نفسي اعتقاداتي المتأصلة فيها ،  
وقيدت أفكارى بعنف لا قبل لى بمقاومته ، ولكن سرعان  
ما يجلها حديث الأمير ويحررها في الحال دخول بكواه . فثلى  
مثل رجل يخشى عادة الأشباح ، فهو يطمئن بمصباح ،  
ويعجب للخوف الذى يزعجه في الظلام . فإذا انطفأ مصباحه  
شعر ثانية بالمخاوف التى يعلم أنه لن يشعر بها متى حل الضوء



محل الظلام . غير أننى أخشى أحياناً أن أولع بهدوئى فأهمل واجبى — وإهماله جريمة — وأن أنسى مختاراً الرسالة العظيمة التى عهد إلى بها . وما أبشع جرمى إن أنا حابيت نفسى فى خطأ شائع ، أو أغرنتى راحتى بأن أترك مسألة على هذا الجانب من الأهمية ، ولم نتبين بعد خطأها من صوابها .

أجاب إملاك : « ليس بين أمراض الخيال ما يستعصى علاجه استعصاء أشد من ذلك الذى يتعقد بالخوف من الخطيئة . فالوهم والضمير يتبادلان وقتئذ التأثير فينا . ويغلب جداً أن يغيرا مكانهما إلى حد أننا لا نستطيع التمييز بين هواجس أحدهما وأوامر الآخر . فإذا عرض الوهم صوراً لا تتفق مع الأخلاق أو الدين طردها العقل حينما تؤلمه . ولكن حينما تظهر الأفكار الحزينة فى صورة الواجب تستولى على قوانا من غير معارضة لأننا نخاف أن نخرجها أو نطردها . ولهذا السبب يكثر أن يكون من يعتقد فى الخرافة من ذوى الأفكار الحزينة ، كما يغلب أن يكون أصحاب الأفكار الحزينة ممن يؤمنون بالخرافات .

« ولكن لا تدع الإيحاءات الناشئة عن التخوف تقهر تفكيرك السليم ، فخطر الإهمال لا يختلف عن احتمال قيامك بالواجب الذى لو نظرت إليه نظرة حرة لوجدته ضئيلاً جداً ، وأن ضآلته

ترداد على الأيام . فافتح قلبك لآثار النور الذى يشع عليك  
من حين لآخر . وحينما تلح عليك الشكوك والتردد طر إلى  
العمل أو إلى بكواه . ولتكن هذه الفكرة دائماً نصب عينيك ،  
وهي أنك لست سوى ذرة واحدة فى كتلة البشرية ، كما أنه  
ليس لك مثل هذه الفضيلة التى تختص بسببها برضا خارق  
للعادة ، ولا الرذيلة التى تنفرد من أجلها بالعذاب الأليم .



## الفصل السابع والأربعون

### الأمير يدخل وبقدم موضوعاً جديداً

قال الفيلسوف : « كثيراً ما فكرت في كل هذا ، غير أنه قد طال خضوع عقلي لفكرة تغمره ولا يستطيع ضبطها إلى حد أنه لا يطمئن إلى قراراته الخاصة . إنني أرى الآن كيف قضيت على راحتي قضاء مبرماً بساحي للأوهام أن تفرسني خلصة ، ولكن الأفكار الحزينة تأتي مصارحة الغير بحقيقة نفسها . وما وجدت رجلاً من قبل استطعت أن أفضي إليه بمتاعبي رغم أنني كنت واثقاً أن ذلك يسري عني . وإني لأبتهج حين أبجد أفكارى الخاصة مؤيدة بأفكارك . وأنت لا تخدع بسهولة ، ولا يمكن أن يكون لك باعث أو غرض في خدعي . وآمل أن يبدد الوقت والتغيير الغيوم التي أحاطت بي وقتاً طويلاً جداً ، وأن ينقضي الجزء الأخير من أيامي في سلام » .

قال إملاك : « إن علمك وفضيلتك كفيلا بتحقيق آمالك » .

ثم دخل راسلاس مع الأميرة وبكواه ، وسأل عما إذا

كانا قد ابتكرا تسليية جديدة لليوم التالى . وقالت نكايه :  
« هكذا تكون حال الحياة : لا يسعد فيها أحد إلا بأمل  
التغيير . والتغيير نفسه لا شىء ، لأنه حينما نغير نرغب فى  
التغيير ثانية . إن العالم لم يستنفد بعد ، فلنبحث غداً عن شىء  
لم أره أبداً من قبل » .

قال راسلاس : « إن التنوع ضرورى ليقنع الإنسان  
بحياته ، حتى الوادى السعيد قد أمضى بأنواع ترفه المتكررة .  
ومع ذلك لم أستطع أن أكف عن تأنيب نفسى على جزعى  
حينما رأيت رهبان القديس أنطونيوس يحيون — من غير  
تبرم — حياة ليست ذات نوع واحد من البهجة ، بل ذات  
نوع واحد من المتاعب » .

أجاب إملاك : « إن هؤلاء الرجال أقل شقاء فى ديرهم  
الهادئ من الأمراء الأحباش فى سجن ملذاتهم . ومهما عمل  
الرهبان فالدافع إلى عملهم مسوخ كاف ومعقول . فكدهم  
يزودهم بما يحتاجون إليه ، لهذا لا مفر لهم منه ، وجزاؤهم  
من غير شك محقق . وعبادتهم تعدهم لحالة أخرى ، وتذكرهم  
بدنوها ، وتجعلهم أهلاً لها . ووقتهم موزع توزيعاً منتظماً :  
فتؤدى واجباتهم الواجب تلو الآخر . وبذلك لا يتعرضون  
لتشتت الفكر بسبب الاختيار غير الرشيد ، ولا يفقدون

أنفسهم فى ظلال خمول يتسم بالغفلة وعدم المبالاة . فهناك عمل محدد يؤدى فى وقته المناسب . وأعمالهم مبهجة لهم لأنهم يعتبرونها من أعمال الورع والتقوى ، بها يتقدمون دائماً نحو سعادة لا نهاية لها .

قالت نكايه : « هل تظن أن نظام الرهبان أكثر قداسة ، وأنه حالة أقل نقصاً من أية حالة أخرى ؟ ألا يأمل كذلك فى السعادة المستقبلية ، من يتحدث إلى الناس علانية ، ومن يغيث المنكوب بإحسانه ، ومن يثقف الجاهل بمعارفه ، ومن يسهم فى تحسين النظام العام للحياة ، حتى لو تركوا أنواع التعذيب التى تؤدى فى الصومعة ، وأباحوا لأنفسهم أن يمارسوا أمثال الملاذ التى تسمح بها حالهم ؟ » .

قال إملاك : « هذه مسألة يختلف الحكماء عليها طويلاً ، وحاد فى شأنها الأختيار . وإنى لأخشى أن أنصر جانباً على آخر . وإن من يعيش عيشة راضية فى الحياة خير ممن يعيش نفس الحياة فى دير . لكن قد لا يستطيع كل إنسان أن يدفع عوامل الإغراء فى الحياة العامة ، وإذا لم يستطع أن يقهرها تفهقر أمامها تفهقراً منتظماً ، فللبعض قدرة ضئيلة على فعل الخير ، كما أن البعض لا يستطيع مقاومة الشر إلا قليلاً . والكثيرون منا يرمون بطول مكافحتهم للشدائد ، ويودون

أن يتردوا تلك الوجدانات التي شغلهم على غير جدوى .  
وأعفى الكثير بحكم الشيخوخة والأمراض من الواجبات  
المجتهدة نحو المجتمع . فقد يشعر العاجز ومن يخشى الحياة  
بسعادة في الالتجاء إلى الأديرة ، وفيها يجد الضائق بالحياة  
راحته ، والتائب مجالا لتأمله . وخلوات الصلاة والتأمل هذه  
تتفق مع عقل الإنسان ، حتى إنه يندر أن تجد فرداً واحداً  
لا يتمنى أن يختم حياته في التجرد الورع بين نفر قليل من  
أصحابه لهم ماله من الجدة .

قالت بكواه : « لقد كانت هذه . أمينتي في أغلب  
الأحيان ، ولقد سمعت الأميرة تصرح بأنها لا تستطيع أن  
تفارق الحياة بين حشد من الناس » .

ومضى إملأك يقول : « إن الحرية في مزاوله الملذات  
البريئة ليست محل نزاع ، ولكن يجب مع ذلك أن نحدد ماهية  
الملذات البريئة . فشر أية ملذة يمكن أن تتصورها نكايه  
ليس في مزاولتها بل في نتائجها . فالملذات قد تكون في حد  
ذاتها بريئة ، ومع ذلك تصبح ضارة إذا حبت إلينا حالة  
نعلم أنها زائلة ومزحلة اختبار ، وأبعدت أفكارنا عن حالة  
تقربنا إلى بدئها كل ساعة تمر ، ومهما طال الزمن لا يوصلنا  
إلى نهايتها . والتعذيب ليس في حد ذاته فضيلة ، وليس  
له فائدة أخرى سوى أن يحررنا من إغواء الحواس . أما في

حالة الكمال المستقبل التي نتطلع إليها جميعاً فستكون فيها ملاذ من غير خطر ، وأمانى من غير حجر .

كانت الأميرة صامته ، والتفت راسلاس إلى الفلكي وسأله هل يستطيع أن يؤجل عزلتها ، وذلك بأن يريها شيئاً لم تره من قبل .

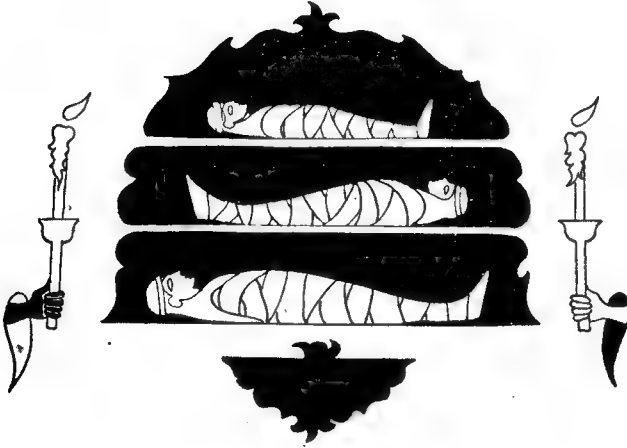
قال الحكيم : « لقد كان استطلاعك شاملاً وطلبك للمعرفة قوياً حتى إنه ليس من السهل مطلقاً أن توجد الآن طرائف تشيك عن عزمك . لكن مالا يمكن الحصول عليه بعد الآن من الجى قد يجود به المبت ، وإن بين عجائب هذه البلاد سراديب الموتى أو المستودعات القديمة التي وضعت فيها جثث أقدم الأجيال حيث لا تزال باقية من غير تعفن أو فساد بفضل الأصماغ التي استخدمت في تحنيطها . »

قال راسلاس : « إننى لا أعرف ما تستطيع أن تقدمه رؤية سراديب الموتى من مسرات ، غير أننى قررت أن ألقى عليها نظرة إذ لم يقدم أى شىء آخر . وسأضع هذا بجانب أشياء كثيرة أخرى فعلتها لجرد أننى أريد أن أفعل شيئاً » .

فاستأجروا حرساً من الفرسان ، وزاروا سراديب الموتى فى اليوم التالى . وحينما هموا بالهبوط إلى كهوف الموتى قالت

الأميرة : « بكواه ! نحن الآن نغزو مساكن الموتى ثانية ،  
وأعرف أنك ستتخلفين ، فأمل أن أجذك سالمة حين أعود » .  
فأجابت بكواه : « لا . لن أتخلف . سأهبط بينك وبين  
الأمير » .

ثم نزلوا جميعاً ، وجالوا دهشين خلال سراديب الموتى  
تحت الأرض حيث صفت الجثث على كلا الجانبين .





## الفصل الثامن والأربعون

### إملاك يتحدث عن طبيعة الزوج

قال الأمير : « ما السرفى أن المصريين يحفظون تلك الجثث بهذا القدر العظيم من النفقات ، بينما يحرقها بعض الأمم ، والبعض يضعونها لتختلط بالتراب ، والجميع يتفقون على إبعادها عن أنظارهم بمجرد أن تؤدي الطقوس المناسبة ؟ » .

قال إملاك : « إن منشأ العادات القديمة غير معروف ، فكثيراً ما يستمر العمل بعد زوال السبب الذى دعا إليه . ومن العبث فيما يتعلق بالطقوس الخرافية أن نتكهن بأسبابها ، لأن الذى لم يمله العقل لا يستطيع أن يعطى سبباً له . ولقد اعتقدت طويلاً أن عملية التحنيط لم تظهر إلا من الحنوخو بقايا الأقارب أو الأصدقاء . وأنا أكثر ميلاً إلى هذا الرأى ، لأنه لا يمكن — على ما يظهر — أن تكون هذه العناية عامة ، إذ لو حفظ جميع الموتى لأصبحت مستودعاتهم على مر الأيام أوسع رقعة من مساكن الأحياء . وإننى أظن أن الأثرياء والأشراف فقط هم الذين حفظت جثثهم من التعفن والفساد ، وترك الباقون للطبيعة تفعل بهم فعلها .

« لكن يظن عادة أن المصريين اعتقدوا أن الروح تبقى

ما بقى الجسد غير متحلل ، ولهذا حاولوا هذه الطريقة لتجنب الموت » .

قالت نكايه : « كيف أمكن أن يفكر المصريون الحكماء في الروح على هذا النحو من السذاجة ، وإذا استطاعت الروح أن تعيش مرة بعد انفصالها من الجسد فإذا يمكن أن تناله أو تخشاه منه بعد ذلك ؟ » .

قال الفلكي : « كان لا بد أن يخطئ المصريون في تفكيرهم في عهد ظلام الوثنية وإبان عهد الفلسفة . إن طبيعة الروح لا تزال موضع خلاف ، فإنه رغم جميع الفرص المتاحة لنا للمعرفة الواضحة لا تزال طبيعة الروح مثاراً للنزاع ، إذ لا يزال البعض يرى أنها قد تكون مادة ، ومع ذلك يعتقد أنها خالدة » .

أجاب إملاك : « نعم لقد قال البعض بأنها مادة ، ولكنني أعتقد أنه لم يقل بهذا أحد ممن يعوفون كيف يفكرون ، لأن جميع الأحكام النهائية للتفكير السليم تقضى بأن العقل مجرد من المادة ، وجميع ما يشير إليه الحس وبحوث العلم تتفق في التدليل على لاشعورية المادة .

« ولم يظن أبداً أن التفكير من خواص المادة ، أو أن كل ذرة من ذرات المادة كائن مفكر . وإذا خلا أى جزء في المادة من الفكر فأى جزء نستطيع أن نظنه مفكراً ؟ ولا تختلف

مادة عن أخرى إلا في الشكل والكثافة والحجم والحركة واتجاه الحركة . فإلى أى من هذه منفردة أو مجتمعة نستطيع أن نلصق الوعي ؟ وإن حالات الوجود المادى هى أن يكون مستديرا أو مربعا ، جامدا أو سائلا ، ضخماً أو ضئيلاً ، بطيء الحركة أو سريعها ، فى هذا الاتجاه أو ذاك ، وكلها متساوية فى مدى بعدها من طبيعة التفكير . وإذا كانت المادة وقتاً ما مجردة من الفكر فإنه لا يمكن أن تجعل مفكرة إلا بتغيير جديد ، غير أن جميع التغيرات التى يمكن أن تلحقها متساوية فى عدم اتصالها بالقوة المفكرة » .

قال الفلكى : « لكن الماديين يؤكدون أنه قد تكون للمادة خواص لانعلمها » .

فرد إملاك : « لا يعد من الكائنات العاقلة من يدحض ما يعلم باحتمال وجود شيء لا يعلمه ، ومن يستطيع أن يقيم الإمكانيات المفترضة أمام الحقائق الثابتة المقررة . وكل ما نعرفه عن المادة هو أنها خاملة لاحسن فيها ولا حياة . وإذا كان هذا الاعتقاد لا يمكن أن يعارض إلا بالإشارة إلى شيء لا نعرفه فقد حصلنا فى تأييد اعتقادنا على كل برهان يسلم به العقل البشرى . ولو طغى ما لا نعرف على ما نعرف ما استطاع كائن ليس عليهما بكل شيء أن يصل إلى يقين » .

قال الفلكي : « فلنكف عن الحد من قدرة المولى في غطرسة وكبرياء » .

فأجاب الشاعر : « ليس حدا من قدرة القدير على كل شيء أن نظن أن شيئاً ما ليس متلائماً مع آخر ، وأن نفس القضية لا يمكن أن تكون صادقة وباطلة في آن واحد ، وأن نفس العدد لا يمكن أن يكون زوجياً وفردياً معا ، وأن التفكير لا يمكن أن يوهب لما خلق عاجزاً عن التفكير » .  
قالت نكايه : « إنني لأعرف فائدة كبيرة لهذا الموضوع . هل هذه اللامادية — التي برهنت عليها في رأيي برهنة كافية — تتضمن بالضرورة بقاء أبديا ؟ » .

قال إملاك : « إن أفكارنا عن اللامادية سلبية ، وهي لذا مهمة . ويظهر أن اللامادية قدرة طبيعية على بقاء دائم نتيجة لتجردها من أسباب الانحلال والفناء . فكل ما يفنى يفنى بتحلل أجزاء نسيجه وانفصالها بعضها عن بعض ، فلا نستطيع أن نتصور كيف يفنى بالطبيعة أو يفسد مالا أجزاء له ، ولا يمكن بناء على هذا تحلله » .

قال راسلاس : « إنني لأعرف كيف أتصور أن أي شيء ليس له امتداد . وكل ما يمتد لأبد أن تكون له أجزاء . وأنت تعترف بأن ما له أجزاء قد يفنى ويتهدم » .  
أجاب إملاك : « تدبر أفكارك وستقل المصاعب أمامك .

ستجدها جوهرًا لا امتداد له . والصورة الذهنية ليست أقل واقعية من الحجم المادى ، ومع ذلك ليس للصورة الذهنية امتداد ، فحينما نفكر فى هرم ليست الفكرة التى يملكها عقلك عن الهرم أقل تحديدا من الهرم نفسه ماثلا أمامك . وأى فراغ تشغله فى ذهنك الصورة الذهنية لهرم أكثر مما تشغله الصورة الذهنية لحبة قمح ، أو كيف يمكن أن تسمح أية واحدة منهما بالتمزق والانفصال ؟ والنتيجة كالعلة ، والفكر كالملكة التى تفكر ، وهى ملكة لا تتأثر ولا تنفى بتحلل أجزائها .

قالت نكايه : « لكن الكائن الذى أتخشى ذكره ، الكائن الذى خلق الروح قدیر على إبادتها . »

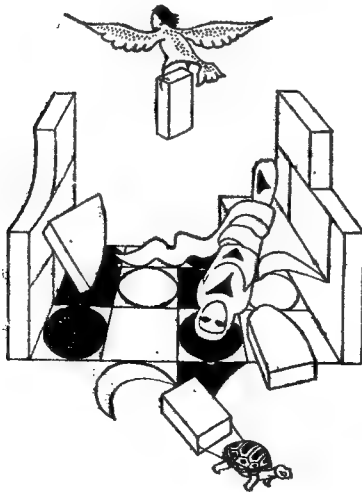
فأجاب إملاك : « نعم يستطيع إبادتها ، لأنها — مهما كانت غير قابلة للفناء — تستمد قدرتها على البقاء من طبيعة أسمى . أما أنها لا تنفى بأى سبب متصل بالفساد أو مبدأ التعفن فذلك ما تؤيده الفلسفة ، غير أن الفلسفة لا تستطيع أن تتجاوز هذا الحد . وأما أنها لا تباد بوساطة من خلقها فذلك ما نتعلمه بخشية وخضوع من ثقافات أعلى منزلة . »

فوقف أعضاء المجلس كلهم هنيهة صامتين ومستجمعين أفكارهم ، وقال راسلاس : « فلنغادر منظر الفناء هذا ، فما أشد كآبة ديار الموتى هذه لمن لم يعرف أنه لن يموت أبدا ،

وأن من يعمل الآن سيستمر في عمله ، وأن من يفكر سيواصل تفكيره إلى الأبد . هؤلاء الذين يرقدون أمامنا ممددة أجسامهم ، حكماء الأزمنة القديمة وجبايرتها ، ينذروننا بأن نذكر قصر حالتنا الراهنة . وربما كانوا قد اختطفوا بينما كانوا مشغولين انشغالنا في اختيار طريق الحياة » .

قالت الأميرة : « إن اختيار طريق الحياة قد أصبح بالنسبة لي أقل أهمية ، وآمل من الآن أن أفكر فقط في اختيار طريق الأبدية » .

ثم أسرعوا خارج الكهوف ، وعادوا إلى القاهرة في حياة حرسهم .



## الفصل التاسع والأربعون

### خاتمة من غير خاتمة

كان ذلك الوقت زمن فيضان النيل ، وقد بدأ النهر يرتفع بعد زيارتهم لسراذيب الموقى بأيام قليلة .

واضطروا لأن يلزموا دورهم . ولما كانت المنطقة كلها معطاة بالمياه لم تمكنهم من أية نزهة . ولما كانوا مزودين تمام التزويد بموضوعات للحديث سلوا أنفسهم بالموازنات بين الأشكال المختلفة للحياة التي كانوا قد لاحظوها ، والخطط المتباعدة التي كانوا قد كونوها .

ولم تكن بكواه مبهجة بأى مكان ابتهاجها بدير القديس انطونيوس حيث أعادها الأعرابي إلى الأميرة ، وودت فقط لو ملأته بالعذارى التقيات ، وجعلت هي رئيسة للراهبات . فقد كانت ضائعة بطول الانتظار والاشمئزاز من الحياة ، وكان بودها أن تستقر في حياة غير متقلبة .

واعتمدت الأميرة أن أثنى الأشياء الدنيوية هو المعرفة ، ورغبت أن تتعلم أولا العلوم ، واقترحت بعد ذلك أن تؤسس كلية للسيدات العالمات ترأسها هي حتى تستطيع — بالتحدث إلى الكيبرات وتعليم الصغيرات — أن تقسم وقتها بين تحصيل الحكمة وتلقينها للغير ، وتعد للجيل القادم نماذج من الحكمة العملية والتقوى .

وود الأمير لو كانت له مملكة صغيرة يقيم فيها بنفسه  
العدالة ، ويشرف على أقسام الحكومة غير أنه لم يستطع  
أبداً أن يثبت حدود مملكته ، وكان دائماً يزيد من عدد  
رعاياه .

أما إملاك والفلكي فكانا قانعين بالسير مع تيار الحياة من  
غير أن يحددا اتجاههما إلى ثغر معين .  
ولقد عرفوا معرفة تامة أن هذه الرغبات التي كانوا قد  
كونوها لا يمكن الحصول على أية واحدة منها ، ففكروا  
فترة فيما ينبغي أن يعمل ، ثم قرروا بعد انتهاء الفيضان أن  
يعودوا إلى الحيشة .





مطبعة کوستاتسوماس وشرکاء  
● شارع وقف المرحوم علی - الطرابلسیة ۴۴۱۸

مطبعة گوستا سوماش و شریک  
• تاج و قنداز مرطبی - افکار شماره ۱۱۸۸ •